# السيد الادريسي

# بلاد السيْد

## او ما يحكمه الادريسي من عسير

**حدودها** : غربا البحر الاحمر . شمالاً ابو مَتْنه على البحر . جنوباً الُحديدة. شرقاً جبال اليمن ( وقد كانت الحدود الشرقية في رمضان ١٣٤٠ كما يلي : آخر جبل رَيمه جنوباً للامام يحيى ، وجبل براع المجاور لرَيمه للسيد الادريسي . وآخر جبل صعفان شمالا للامام ، واول جبال بني سعد المجاورة لصعفان للسيد ) .

**سكانها** : نحو مليون نفس .

**مساحتها** : تمتد ثلاثمائة وخمسين ميلاً شمالاً بجنوب . ومعدل عرضها غرباً بشرق سبعون ميلاً . السهل الذي يتصل بالعقبة وراء ميدي وجيزان عرضه اربعون ميلاً .

**اهم قبائلها** : رجال ألمع ْ والمسارِحة وبنو مِروان والقُحراء وبنو هلال وبنو عبس .

**اهم مدنها** : صبيا وجيزان وميدي واللحيّة والحديدة وابو عريش وباجل .

**مذاهبها** : السنيون : شوافع . الشيعة : جعفريون واسماعيليون . البارسيون واليهود والهندوس .



حضرة السيد محمد بن علي الادريسي

# سطح اليمن

الموظف الانكليزي في بلاده وخارجها – بلاد العدو – الاخطار – ثلاث لفائف – الرحيل – السيد علي يؤدب احد المكارين – جبل عصر – طريق العربات – وداع صنعاء – النبي شعيب – شبام – متنه – عساكر الدولة – « اربع ساعات الى صنعاء ! باد شاهم جوق يشا! » – حمدان النعسان – ثلاثة فصول في وقت واحد – سطح اليمن – بوعان ولبنان – الحميه – حصونها الشاهقة وبساتينها – سوق الخميس – مجلس القات – الصبير والسمادين – مفحق قبو اليمن – السامرية – المقيل – الفقيه الذي قتل تلميذته – حديث الجمال – رحم الله الدولة .

الكريم من لا يعللك اذا عجز عن الاكرام والمساعدة واذا اكرمك فلا يمتن عليك . والكريم اذا كان موظفاً لا يقول : لا ، بعد ان يقول : نعم ، واذا قال : نعم ، يشفع الاجازة مثلًا بالصنيعة والصنيعة بالبشاشة . ان الأنكليزي في بلاده وفي حكومة بلاده هو هذا الرجل . اما خارج انكلترا ، ولا سيما في الشرق ، فهو مثل الواحة في الصحراء . لذلك هو اكبر قدراً ، وان لم يكن ارفع مقاماً ، من زميله في انكلترا .

قد كان حظي في رحلتي اني مررت ببعض الواحات ، منها واحة في دار الاعتماد بعدن استأنست بظلها وانتعشت . اقول « بعدن » على الرغم مما لقيت فيها من العقبات . فقد كانت خطتي في السفر ان ازور الامام يحيى في صنعاء ثم اسافر منها الى الحديدة لازور السيد الادريسي في عسير . ولكن الامـــام والسيد اعداء والبلدين في احتراب . أمـا الأنكليز ، فاذا كان لاحق لهم في اليمن الاعلى ، فهم يستطيعون ان

يمنعوني من الدخول الى بلادٍ صاحبها حليفهم ومدينتها الكبرى الحديدة هي فعلًا في يدهم. سألت المعاون الفاضل في دار الاعتماد ، بعد ان صدرت الاجازة بالسفر الى صنعاء ، ان يعطيني كتاب تعريف الى وكيلهم السياسي في الحديدة ، فاجاب : هو اليوم في عدن وسأقول له ان يزورك . وكان كذلك . فاجتمعت بوساطة المعاون بفاضل من افاضل الهند ، روحه شرقية ، وعقله شرقي غربي . هو الدكتور محمد فضل الدين ، الوكيل السياسي في الحديدة لدولة بريطانيا .

وكنت ، وانا في طريقي الى صنعاء ، اشكر الاثنين دائماً لاني كرهت ان اعود من حيث اتيت لا لما قاسينا من المشقات فقط بل لرغبتنا في ان نحيط علماً بالبلاد واهلها ولكني وانا في صنعاء ظننت مرة ان الامام لا يأذن بالسفر الى بلاد العدو ، فتمثلت امامي تلك الطريق الى عدن، وآفاق الحياة فيها مربدّة كلها . ثم جاءنا احد السادة يزيدنا كرباً وغماً في ما صوّره من الاخطار في منطقـــة الحدود بين الحجيّلة وباجل – اذا سلمتم فيها فلا تسلمون من الاسر . الادريسي لا يركن الى احد قادم من عند الامام .

ولكن حضرة الامام عندما فاوضناه في الامر حقق لنا املًا في ارساله كتاباً مني الى الدكتور فضل الدين بوساطة عامل حراز في مناخة وامير الجيوش الادريسية في باجل . وقال تهدئـة لبالنا : اذا جاء الجواب بالايجاب فلا بأس بسفركم .

ان المسافر في البلاد العربية ليتعلم قبل كل شيء الصبر . صبرنا عشرة ايام وقطعنا الامل ، ولكننا وجدنا شيئاً من التعزية في الآية : وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم . فلا تخلو الطريق بين بلدين متحاربين من الاخطار . وبينا انا افكر ذات يوم في ما اقول لمولاي

الامير في ماويه وقد سألني :أحسني انت ام حسيني ،وعرف بعدئذ اني مسيحي ، وكيف اجيب في يوم ذاك الشيخ الفقيه الذي جمع اولاد مدرسته صفاً وانشد واياهم : نصر الله المسلمين ، ورسول الخير الامين ، بينا انا في هذه الورطة دخل الحاجب وبيده ثلاث لفائف قدمها لي قائلاً: من الامام . ففضضت الاولى فاذا هي :

بسم الله

مولاي القاضي العلامة عبدالله بن الحسن العمري حفظه الله وتولاه وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاتـــه وصلى الله وسلم على محمد وآل هداته والله يحفظ ولي النعمة ويديم بقاه آمين .

وصلت الى هذا الحد وكدت من الغيظ اشتعل فصحت بالحاجب : يا رجل هذه الرسائل ليست لي . فاجاب وهو يحلف برأس الامام ان قدجاء بها رسول من الديوان يقول: هي لامين ريحاني فاستأنفت القراءة حيث وقفت مغضباً :

صدر السلام وصدر جواب البوسطة المرسول الينا . العنوان لنا والمكتوب للريحاني كما تطلعون والله يحفظكم عامل حراز

في ١٠ رمضان سنة ١٣٤٠ علي الاكوع

ثم في حاشية : والله يجعلنا من عتقاء هذا الشهر الكريم ونعوذ بالله من النار .

وكانت اللفافة الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاجل المحترم الشهم امين الريحاني سلمه الله

بعد السلام والاكرام. ورد كتابكم مع كتاب الى حضرة الحكيم

محمد فضل الدين وبوقته ارسلناه تلغرافياً اليه وورد جوابه وها هو مقدم اليكم. اذا اشعرتمونا من مناخة بوصولكم نلزم القائم من طرفنا في الحجيلة ليرافقكم الى باجل .

قائد الجيوش الادريسية

محمد طاهر

رضوان

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

وكانت اللفافة الثالثة :

حديدة ٨٣٣ ٧ — ٨ سنة ٤٠

الى صديقنا امين الريحاني

حياكم الله وعافاكم • سرنا عزمكم لطرفنا . اهلاً وسهلاً بكم . حين وصول تلغرافكم اشعرنا حضرة القائد الشيخ الهمام محمد طاهر رضوان قائد الجيوش الادريسية بباجل ما يلزم . وقريباً نراكم ان شاء الله باحسن حال .

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

محمد فضل الدين

والحمدلله ! قد اطمأن بالنا وحسن حالنا . لا تظن ايها القارىء ان اهتمامنا بمثل هذا الامر واشغالك به هو ضرب من السخافة . فانك اذا رافقتنا في السفر وادركت بعض مقاصدنا واحسست ببعض ما كنا نقاسيه في سبيلها تتأكد ان صغار الامور تحول احياناً دون كبارها . فالحمدلله اذن على ساعة في رمضان سعيدة ، بددت غيمات ماوية ويريم من سمائنا ، وفتحت لنا طريق الحديدة ، فصفا الذهن للمفاوضات السياسية ، التي استمرت بعد ذلك عشرة ايام . ثم استأذنا حضرة الامام بالرحيل فكان في توديعه لطيفاً كريماً : « ما تمكنا ونحن في رمضان

ان نقوم بالواجب ونود ان تبقوا عندنا الى شهر العنب [1] . قد تعود الينا يا قسطنطين ، اما الاستاذ امين فسيسيح في البلاد العربيــة ويرى غيرنا . فلا تظلمنا يا امين بالمقابلة بيننا وبينهم . »

ثم امر لنا بالركاب وكان الموكل بتسييرنا السيد علي زباره غيوراً على راحتنا ، فلم يدع شيئاً من مريحات السفر وحاجاته الا وفره لنا . مثال واحد من غيرته وعزمه . عندما جاءت المطايا صباح يوم الرحيل رأى ان سرج احداها بلا ركاب . فسأل صاحبها عنه فاعتذر وتبرم ، فضرب السيد علي يده على وسط الرجل واخذ الجنبية [2] منه قائلاً : رح هات الركاب . فراح المكاري الى المدينة راكضاً وعاد ملبياً . ولم يرجع السيد علي الجنبية اليه الا بعد ان تشفعنا به . ـــ اذا كان هذا اهماله وهو لا يزال تحت عيني فكيف يكون في الطريق ورأس الامام !

واشفع القسم بخطبة وجهها اليه والى رفاقه كلها وعيد وتهديد . شيعنا السيد علي والسيد احمد الكبسي من قبل الامام إلى خارج السور فودعناهما هناك شاكرين متأسفين ، اذا كنا نجتمع بهـــذين الفاضلين اكثر من سواهما وكان السيد احمد خصوصاً اقرب الجلساء الينا واكبر المؤنسين .

سرنا من صنعاء غرباً نبغي البحر . وما كنا لنتصور ما وراءه من الجبال وما بين جبل واخر من هول المسافات حتى وصلنا ذاك اليوم

---

(١) عنب صنعاء مشهور بجودته وانواعه وهو ينضج هناك في اخر حزيران .

(٢) للجنبية اي الخنجر عندهم قيمتان ، قيمة حقيقية في ما يصلحله، وقيمة عرضية اجتماعية اي في ما توجبه المرؤة واللياقة . فهي اعز مـا يحمله اليماني ، وفي انتزاعه منه اشد تأديب له واكبر اهانة .

الى رأس بوعان . ولكننا ايها القارىء العزيز لم نصل واياك اليه . اننا لا نزال بين صنعاء وجبل ُعصر في سهل وسيع فيه بقع صغيرة مزروعة تلوح بين فسحاته السمر البور « كباقي الوشم في ظاهر اليد » اذا آثرنا استعارة من شعراء الجاهلية . او كالشامات في وجوه البدويات اذا شئنا التشبيب . او كبعض الاوراق الخضرا — وهذا اقرب الى مـــا كنا نشعر به ونحن نجتاز تلك الارض المهملة — في شجرة عراهـــا الخريف . ولكن للشجرة ربيعاً يعود اليها . وهذه البلاد في مكان من الارض شاءت الطبيعة ان يكون ربيعه دائماً ، وما شاء الانسان غير الكسل والخمول .

ان الهواء والسماء والماء تبسم كلها لأرض اليمن . ولكن اليماني لا يستخدمها الا في ما يحتاج مباشرة اليه فمما لا ريب فيه ان في السهول حول صنعاء ماء حيثما بحثت ، لأن في قديم الزمان ، كما يقول بعض العلماء كان يجري نهر هناك ، ولا تزال المياه تتدفق من جبل ُلقم في قني المدينة . ولكن الصنعائي يغني طيلة نهاره لجمل الساقية . او يقضي نصف نهاره في « تخزين » القات ولا يسعى في احياء ارض فيها قيد عشرة اذرع واقل من الماء والثراء. اجل، ان بين لقم وُعصر وما يدعى في الشمال الارحاب من المياه ما يكفي لاشغال مئات من السواقي والجمال . فلو استخدمت لكانت تلك السهول بساطاً واحداً اخضر ناضراً .

وهذه هي طريق العربات التي بناها الترك . انه ليحزنك كذلك مرآها وذكراها ، بدأنا نصعد فيها الى جبل ُعصر فحدثنا خرابهـــا فشل الدولة وشكا الينا اهمال الامام . هي طريق الحديدة الى عاصمة اولاذواء ، الى قلاع الزيود ، ُبنيت لرسل الخراب لا لرسل العمران .

بُنيت لجر المدافع ونقل الجيوش ، لا للتجارة والمواصلات المثمرة خيراً . تلفتنا من آخر منعطف فيها فاذا بصنعاء وقد احتجبت بحجاب ذهبي شفاف نسجته لها الشمس الشارقة فوق ُلقم العاري العقيم .

وما اجمل ما لاح لنا في سفحه خلال الحجاب . مدينة عجيبة كان لها من اسباب العمران والمجد والشهرة ما لأكبر مدن العالم المتمدن اليوم . لها تاريخ غابر مجيد ، لهـــا مدنية قامت بين شمس المجوس وكواكب الاوثان ، وتعددت فيهـــا الاسرار والكهان ، وعزّت عندها آمال الانسان ، فكانت ملكة سباء ، وكان حمير ، وكان قحطان . ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان . وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء ، ونوابغ في فن البناء . فضلاً عما خصتها الطبيعة بما لا يزول ابداً ولا يحول . فهي على علوها لا تعرف الثلج ، وهي على دنوهـــا من خط الاستواء لا تعرف من قيظه غير نزوات واهنات . وفيها الغزير من الماء القراح . فلو ُعبدت اليها الطرق الصالحة للعربات من الغرب ومن الشمال . واتصلت بها عدن والحديدة بسلك الحديد لتقاطر اليها الناس صيف شتاء من كل النواحي حولهـــا ، ومن البلدان العربية والاسيوية والافريقية كلها ، ولغدت في اقل من عشرين سنة باريس البحر الاحمر .

اي صنعاء عاصمـــة الزيود والجمود ، اننا نغار عليك من الاثنين ، ونود ان يعود اليك مجد الاجداد محمولاً على أكف العلوم الحديثة التي من شأنها ان تصلح احوال الانسان فترقيه في جسمه وعقله وروحه ، وفي بيته ومدينته وبلاده وما سواها من العلوم لا نبغي لـك ولا لسواك من مدن الشرق والغرب .

اي صنعاء عاصمة الاذواء ، اننا في حبنا ابنائك وهم مثلنا من الناس

ونحن واياهم من سليلة واحدة ، نفادي حتى بشيء من معالم الوطنية من اجلهم ، فتصبح اجسامهم اذا اتقوا الامراض ، وتنجلي عقولهم اذافتحوا المدارس ، وتصفو روحيتهم اذا ادركوا من الدين حقيقته الاولى وسره الاعلى . اما الذين ادركوا بعض تلك الحقيقة وبعض ذلك السر فهم يشاركونك في صلاتك ، في فاتحة كتابك وخنمته ، ويودون ان تشاركيهم في صلاتهم . نظرة اخرى يا صنعاء ونستودعك الله .. قد اكلنا من ثمارك ، وشربنا من مائك ، ونمنا تحت سمائك ، وانتعشنا بعليل هوائك ، وكنا قبل ذلك نحبك ، فكيف بنا بعد ذلك ؟ فاذا جاء بعدنا من يصلي صلاتنا وصلاتك ، ومن يحبك حبنا ويغار عليك غيرتنا ، ورأى فيك بعض ما تاقت اليه النفس منا وما اشتهاه العقل والفؤاد — بعض العلم ، بعض الفنون ، بعض الطرب ، بعض العمران — سنغبطه ونحن بعض السر الاكبر في الفضاء ، وفي اللانهاية ، وستغبطه منا العظام والتراب .

وهذه اقحوانة في الطريق واقاحٍ في الحقل بيضاء صفراء تبشر بالربيع . ولكنه ربيع آبدٌ نحيل يكاد يطأ الثرى فتظهر منقطعة آثاره الناعمة . ومثله لا يحيا في مثل هذا العلو بارض الشمال . انما نحن على الف قدم فوق صنعاء وتسعة آلاف فوق البحر . وقد احتجبت عنا المدينة المحبوبة احتجاباً — ابدياً ؟ الله اعلم .

وتلفتت عيني ومذ خفيت   عني الطلول تلفت القلب

وهوذا النبي شعيب قريب بعيد . هنالك على الافق امامنا يلوح كالطيف اسحم رائعاً هو اعلى الجبال في شمال اليمن بعد شُبام فيرافقنا اليوم وغداً .

سرنا اربع ساعات فوصلنا الى مَتْنه ، وهي للقادم من مناخه او من

الحديدة آخر مرحلة الى صنعاء . مَتْنِيه ! كانت في ايام الترك مربعـا لعرائس الحبور ولرسل السلامـة والسرور . فكم من ابناء الدولة المجاهدين — المسوقين الى الجهاد في اليمن — كانوا يخرجون من تهامـة فيموتون في قيظ السبخاء ؟ وفي الشعاب ، وفي « النقيل » وفي مضايق الجبال ، وفي مكامن الاودية ، فيهتف من يصلون منهم الى هذا المكان سالمين : اربع ساعات الى صنعاء ، بادشاهم جوق ياشا ! وكانوا يقضون يوماً او يومين ها هنا ينتظرون المتخلفين من اخوانهم فيعيدون ، ويهللون ، ويبذلون من « الظلط » مـا لا يزال صاحب « السمسرة » يتلمظ بذكره . فيهز رأسه اليوم آسفاً محزوناً ويريك البيت الذي كان قصراً في تلك الايام ... وكم من يهوديات صنعاء خفّفن فيه من كرب المجاهدين وغمهم !

الطلول الدوارس هجرتها الاوانس

وقفنا في متنه اكراماً لعساكرنا وقد اشتهو القهوة ، قهوة القشر . وجميعهم مسرورون لانهم مسافرون في رمضان — ومن كانَ مريضاً أو على سفَرٍ فعِدةٌ منْ ايام أُخرْ — كلهم الا واحداً ، هو رئيس القافلة ، ابى التمتع بتحليل النبي ، وكان الجائع النعسان على الدوام . فما ناديناه مرة الا كان ينعس فوق حماره وهو يمشي الهوينا مشية البقر ولا يلذ له الا مؤخر القافلة . اسمه — الدليل لا الحمار — حمدان ، فسميناه نعسان فزاد ذلك في الطين بلة . وكأن الاهانة لحقت به وبحماره فصار لا يُرى في مقدم القافلة ولا في مؤخرها . — يا حمدان النعسان انت الدليـل ، وما نحن بفقهاء لتدلنا الى الوراء . رح يا حسن فتش عن النعسان . فيعثر الجندي به وهو يتسكع في منعطف الطريق فينتهره ويسوق بالبندق حماره . فيجيئنا التقي النقي ، الصائم النائم ، وهو يتمتم : بسم الله الرحمن

الرحيم ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وعليك السلام يا حمدان ، وصلنا الى بوْعان . وهي بضعة اكواخ عند جسر لطريق العربات جميل الهندسة ، متين البناء ، حجارته سوداء وحمراء وبيضاء . احسن ما في هذه الطريق جسورها . في بوعان اسطبل يدعى مقهاية [1] دخل « القراش » اي الدواب والعساكر اليه ورحنا انا وقسطنطنين نبغي ظلاً تحت الجسر فبسطنا غذاءنا الى جنب الماء هناك . وبعد ان اكلنا واسترحنا قليلاً استأنفنا السير ، فودعنا طريق العربات التي تمر في سفح جبل بوعان وتلف في الاودية لتصل الى مفحق ومنها الى مناخه . صعدنا في الجبل في طريق وعرة زلاء ، وقلعة بوعان الى شمالنا تنطح السحاب ، حتى وصلنا الى اعاليه ، فصفرت فيه الرياح واعلمتنا بظهر من مظاهر الطقس غريب . فالشمس شمس الصيف ، شمس اليمن المحرقة ، والزهور زهور الربيع ، اما الهواء فلا ربيع ولا صيف فيه . كنت اذا اغمضت عيني اظن نفسي في اعالي لبنان في الشتاء . هذه ثلاثة فصول في وقت واحد .

ان رأس بوعان لسطح اليمن . وعلى السطح صخور هي في شكلها ووضعها شبيهة بهيكل عظيم له بابان ، الشرقي اي باب صنعاء والغربي اي باب مناخه . دخلنا الهيكل من باب صنعاء ، فمررنا برواقه بين انصاب جليلة ، وعمد رائعة ، وصخور هي كالهياكل الصغيرة في الهيكل الاكبر . وما هي الا بضع دقائق حتى وقفنا في الباب الغربي ، باب المخاوف والاهوال . ان المسافر ليجد نفسه في غير ما الفه من الارض فيحس هنيهة ان دورة الدم فيه قد وقفت تماماً ، فيشهق ولا يتنفس ، ويهتف

---

(١) في الطريق من عدن الى صنعاء يدعى الخان سمسرة ، وفي الطريق من صنعاء الى الحديدة يسمونه مقهاية او قهوة .

ولا يتكلم . هناك مشهد من الجبال والاودية رائــــع ، مخوف ، يهمس ربه في اذن الانسان : لا تكن مكابراً ، ولا تكن فخوراً .

لا اظن ان في بلاد سويسرة مثل المشهد الذي ينبسط بل يتراكم امامك في اليمن عندما تقف على ذروة بوْعان فتشرف منها على بحر تجمد تحتك ، رؤوس امواجه قنن الجبال ، وسطحه الاودية المتشعبة الملتفة بعضها على بعض . وهنالك وراء القنن الشاهقة والصخور الشامخة المسنمة ، والهضاب الهرمية ، والاودية المدلهمة ، والمنحدرات الهائلة ، هنالك فوق شبه الغيوم التي هي الجبال يلوح في الغرب حراز وفي الشمال سريح وكوكبان ، هنالك الغيمة التي هي مناخة وشكلهـــا كسرج الفرس ، دلني عليها حزام ، فما صدقت ان سنكون فيها مساء الغد . وما هول المسافات والشواهق بشيء عند هول الوهاد والاعمـاق . لبنان ! نعم ذكرت لبنان . ولكنه وان فاق بوعان وشبام علواً ، فهو يضيع في جبال اليمن واوديته المترامية الاطراف مناخـه ! سنكون غداً هناك . انك اذا وقفت في بوعان لا تصدق ان بشراً يستطيع ان يقطع تلك المسافات في اقل من اسبوع .

وان الطير نفسها لتتعثر بسنام الصخور والقنن ، فلا نظن ان مـا خلقه الانسان على شكل الطير يستطيع ان يجتاز هذا الفضاء القائمة فيه الجبال كالجبابرة ، والكامنة رؤوسها كمون العدو في السحاب. اما اذا حلقت الطائرة فوقها فهي ولا شك تضل السبيل في ما يشبه تحتها امواج البحار .

من سطح اليمن في بوعان شرعنا ننزل الى قبوه في مفحق وبين الاثنين درجات لا تعد ، ووهاد لا قعر لها ولا حد ، ومنحدرات لا وطيد فيها غير صخور تظلل الجادات ، وتُسد فيها المنعطفات ، فيزل

عندها حتى الانسان ، فكيف بالحيوان . مشينا والعين تبغي من المشهد الزيادة ، والرجل تبغي السلامة ، فكنا نضطر ان نقف لنحقق البغيتين . وكلما وقفنا لاح لنا في المشهد شيء جديد جليل ، في شعب هناك او في نقيل . ان جبال اليمن كجبال سويسرة في وهادها واكبر منهـا في اتساعها ولكنها غير مأهولة ، وتقل فيها الاشجار والمياه .

في الطريق من صنعاء الى مناخه لم نمر بمدينة واحدة . واكبر قرية شاهدناها هي الحيمه . قرية عجيبة في وضعها ومركزها ، تراهـا الى اليمين في الطريق من بوعان الى سوق الخميس ، وبيننا اودية متشعبة عميقة ، وعلى كتف احداها ارض بدكات في شكل نصف دائرة ذكرتنا بلبنان . وما اكثر ما يذكرك في اليمن بلبنان . ارض الحيمة كلها مزروعة وفيها العودان ، البن والقات . وفوق تلك الدكات البلدة وهي عدة اقسام ، عدة احياء . كل حي قرية بذاته ، بيوته عالية ومتصلة ملزوزة كبيوت المدن بعضها ببعض . وبين كل حي وحي مسافـة يتخللها شعب او نقيل . اما السبب في هذا التقسيم والتباعد في قريـة واحدة فهو يتصل كما أُخبرت بثارات توارثها الاهالي وهم من عشائر مختلفة ، فاتخذ كل قوم حياً منفرداً بعيداً عن الآخر ، وشادوا فيه بيوتهم بل حصونهم ليكونوا في مأمن من رصاص البنادق اذا شبت الحرب بينهم . انك لتراهم مع ذلك يحرثون الارض ويستثمرونهـا . اجل ليس في الطريق من صنعاء الى مناخة اخصب واجمل من بساتين الحيمة الغضة ودكاتها المستديرة الخضراء

وصلنا عند الغروب الى سوق الخميس وهي قرية صغيرة قائمة وسط المنحدر بين بوعان ومفحق ، تحتها الوهاد وفوقها الجبال ، وفيها مركز للسلك الذي يصل مناخه بصنعاء . استقبلنا العامل ورجاله فانزلونا في

دار الحكومة ، واستأذنونا بعد العشاء بان يعقدوا عندنا جلسة القات ، فقبلناهم مكرهين ضيوفاً ، لاننا في مرحلة استمرت احدى عشرة ساعة وفي اوعر طرق اليمن التي اجتزناها كنا قد اشرفنا من شدة التعب على الهلاك . جاؤوا برزم القات وبالمداعات ، فاقفلوا النوافذ ، ونزعوا عن رؤوسهم العمامات ، وطفقوا يدخنون « ويخزّنون » دون انقطاع حتى امست القاعة بعد نصف ساعة مثل مختنق الفالج . خرجت الى الفلاة لانجو من الاختناق ولما عدت الفيت القسطنطيني ، زاده الله قوة وعافية ، يفكه الجلوس باخبار الطائرات ، وقد تأسف عندما نهضوا بعد منتصف الليل يودعون ليستأنفوا الجلسة في غرفة اخرى . فتحنا النوافذ لنطهر البيت ، وما كدنا ننام حتى استفقنا على صوت الطبل ، طبل السحور .

قمنا ، و « لا حول ولا » على الاسنة نشد للرحيل . فاستأنفنا السير في نور القمر الضئيل ، نازلين من جبل الى جبل ، ومن وادٍ الى واد — نازلين الى جحيم اليمن ، الى القعر الذي لا قعر دونه في تلك الارض ، الى مفحق . وما مفحق غير اسم لشُعب ضيق مدلهم شاهدنا فيه لاول مرة الرباح وهو سعدان كبير وشاهدنا من الطير ما يشبه الهدهد ، ومن النباتات الشوكية وانواع الصبير ما لا نعرف له اسماً غير الصبير وصبر ايوب .

من سطح اليمن في بوعان الى قبوه في مفحق مسيرة ست ساعات ، فيها منتهى الوحشة والوعورة . ثم من مفحق عدنا الى التصعيد ، ثم النزول مراراً ، فمررنا بمقهاية تدعى العجز استقبلتنا فيها امرأة ذات وجه بشوش فتك الجدري بمحاسنه ، فلم يُبق على غير الشكل والعيون . سقت « القراش » بقربة ملأتها من البئر

بيدها ، وكانت في عملها وحديثها سامرية بلاد الزيود . قد شاهدنا غيرها من اخواتها لابسات السراويل المعقودة فوق الخلخال يشتغلن في الحقول ، واكثرهن يحملن في وجوههن نبأ حسنٍ ذهب فريسة الجهل والوباء . وكأن الناس هناك الفوا هذا التشويه فلا ينفرون منه ولا يحزنون .

وصلنا بعد الظهر الى سفح جبل حراز فجلسنا هناك في مقهاية تحت خيمة من الغرف نستريح قبل تصعيدنا الاخير الى مناخة ، ففكهنا احد الرفاق بقصةٍ انستنا بعض اتعاب الطريق . كان الحديث في النساء والمحدث رجل خفيف الظل ، حسن النكتة ، رافقنا من متنيه ورجلين اخرين احدهما شيخ شائب والآخر جمّال حطاب . قدم لي المحدث نوبيش المداعة قائلاً : لا يهمهم الجدري ما دام الفقيه بخير . لهذا الرجل — اشار الى الشيخ الذي كان نائماً — امرأة مثل من رأيت وجه حسن ولسان حلو . وله فتاة اشتهت الام ان تعلمها القراءة فاستحضرت الفقيه الى البيت . فقرأت المسكينة اسبوعاً فقط ثم — وضرب كفه الايمن على قبضة اليسرى — وقعت في الشرك . طلبها الفقيه من امها فأبت فافرغ البندق في بطنها . ورأس الامام ! فقلت : قتـل الام ؟ فاجـاب : قتل الفتاة ! وهوذا الحين في السجن بصنعاء . وهـذا الشائب — مسكين يجب ان يحمل كفنه معه في السفر — هو زوج الام وابو الفتاة . راح يطلب من الامام دم الفقيه واهل الفقيه يشتهون دفع الدية .

— وهل تقبل الدية ؟

فاجاب وعينه تغمز وتلمز : اذا كان الفقيه علم الام كذلك فـلا خوف على حياته . تقبل الام الدية . ورأس الامـام ، وتسترجعه

لتكمل القراءة . وما قولك وهذا زوجها ، وهي كمن رأيت ، الا تظنها تقبل ؟

– واذا ابت ؟

– المأمور يا افندي يرتشي برطل زبيب .

فهز الجمّال رأسه اثباتاً وقال : في ايام الدولة كنا نرشيهم بالظلط. الترك يأكلون الزبيب .

فقال القصاص : خير الجود الموجود . كانت الظلط في تلك الايام مثل الزبيب اليوم . وكان يحملها الترك من مناخة الى بوعان ثم الى صنعاء في موكب عظيم . انا مشيت مرة فيه ونجوت والحمد لله . موكب عظيم يا افندي. هذا الضابط حامل الظلط ،وهذا الجيش قدامه ووراءه الى يمينه ويساره ،وهو في الوسط مثل العروس يحرسها الفان من النظام [1] . وهناك وراء بوعان الثائرون يكمنون للترك فيسلبون الظلط ويذبحون النظام .

فهز الجمّال رأسه اثباتاً وقال : وكنت انا اشتغل للترك ، انقل لهم الحطب . مجيديان اجرة الجمل . وكان ابي واخي وعمي يحاربونهم هناك، عند بوعان . كنا كلنا نأخذ الظلط من الترك .

رحمة الله عليهم . ما افادتهم المدافع والحصون وطرق العربات . ولا نظن ان عسكراً من عساكر الدول الفاتحة في الماضي او في الحاضر يقوى على حصون الطبيعة واهل الحصون في هذه الجبال .

بعد ان صعدنا في نقيل مناخة واستوينـا الى رأسه نظرنا الى المسافات الهائلة التي قطعناها فكان طيف بوعان وغيمة النبي شعيب في الآفاق البعيدة شرقاً وشمالاً يثبتان ما نقول . انك اذا قطعت تلك

---

(١) الجيش النظامي .

المسافات راكباً ، خفيف الثياب ، لأسير هولها ووحشتها ، فكيف بك اذا كنت جندياً تحمل عشرة ارطال على ظهرك ، وقنطاراً من الهم في صدرك ؟ اجل ، ان اليمن ضريح الدولة ، ولا يزال اهل اليمن يترحمون عليها .

## الى الحدود

مناخة – الحصن الحصين – عامل لا يحسن غير الواجب عليه – « لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب » – المشهد من سطح البيت – مناخة واب – الفرق بين العاملين – قرية الهجرة – جبل وسل – العتارة – الاسماعيلية والفرق الباطنية – الداوودية – مقهاية وسل – كيس النوم – الفقراء في لندن ونيويورك – قواعد الصحة والطب الخرافية – السعادين ترمينا بالحجارة – قاع صعفان – الحدود – الشيخ حمزة – « على الرأس امر السيد وعلى العين امر الامام » – شيخ الحجيلة – « كلنا نشتهي السلم » المصيبة من الله – وله شريكان في اليمن .

ان مناخة قائمة على قنة جبل حراز التي تشبه صهوة الفرس . وهي قسمان قسم في الصهوة ، وقسم خارجها على ربوة في الجهة الشمالية . ولكنها في الحالين حصينة منيعة . فهي في علوها ، ٥٠٠ قدم فوق صنعاء ونيف عن ثمانية الاف قدم فوق البحر ، مسرح للغيوم وموطىء للنسور والعقبان . وقد كانت بالامس موطىء قدم الدولة في اليمن الاعلى ومركز جندها الاهم . فيها ثكنة هي في مقدم الصهوة عند سنامها ، ثكنة كبيرة لا نسبة بينها وبين البلدة الصغيرة الحديثة البناء ، التي لا يتجاوز عمرها خمسين سنة ، ولا يربو سكانها على خمسة الاف منهم الفان يحملون البنادق .

وفي مناخة اليوم مركز قضاء حراز ، ودائرة للسلك والبريد ، ومفرزة من الجنود . وهي محطة للتجارة بين الحديدة وصنعاء . اما الحصون فلا حاجة اليها ، لانك اذا وقفت على سطح من سطوح البلد

تشرف من الجهات الاربع على الهائل البعيد الغور من الاودية والوهاد والشعاب . لا اظن ان عسكراً من عساكر العالم يستطيع الاستيلاء عليها من الغرب ، قادماً من الحديدة ، او من الشرق ، قادماً من صنعاء ، اما اذا نفدت الذخيرة فيها فيتخذ المحاصرون سلاحاً آخر من الحجارة يقذفون بها على العدو ، فتفعل ما لا تفعل البنادق كما تيقن الترك في شهاره . لا عجب اذا كانت الرهائن ، وقد عرفنا شيئاً من طباع اهل اليمن ، اساس حكم الامام وحصنه الاحصن . اذ لو اعلن عامل حراز استقلاله مثلاً ، او ابى ان يرسل اموال الزكاة ، اوتصرف بقسم منها : هو وجنوده في هذا الحصن الطبيعي الحصين ، فلا اظن ان امام صنعاء يستطيع تأديبه والتنكيل به بغير ما عنده رهينة من لحم ذاك العامل ودمه .

أُنزلنا في بيت كبير هندسته اوروبية بنـــاه احد ولاة الترك . ووُكل امرنا الى خادم عنده بخدمة المتمدنين بعض العلم والذوق ، اقتبسهما ولا شك من سادته السابقين ، فاقمنا يوماً هناك نستريح مما كابدناه من المشقات .

زرت العامل الشيخ علي الاكوع ليلاً في مجلسه فاستقبلني وهو في قميص النوم وامر لي بمداعة ورزمة من القات . واجتمعت عنده ببعض العلماء وفيهم سيد معجب بعرب الاندلس وباحد ادبائها الشهيرين ابن زيدون صاحب الوزارتين . أعجبني حديث الرجل ، ومما قاله :لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب .

تفضل حضرة العامل فأرسل مع نجّاب علماً بوصولنا كتبته بيدي الى قائد الجيوش الادريسية في باجل . وكان قد اعلم بذلك ولي الامر في الحدود . وأعد لنا اكياس البن التي امر بها الامام ــ هدية امامية .

ولم يلحّ الشيخ الاكوع علينا بالاقامة مثل سواه . ولا تحرك خارج بيته او ديوانه ليقوم بغير ما وجب عليه من الاكرام كعامل الامام لا . لم يكلف نفسه زيارتنا ، ولا تذرع برمضان او اعتذر . أعجبني الرجل في سلوكه الفريد . هو حر شاذ الطباع لا يعمل غير الواجب عليه ، بل يعمل بما يأمر الامام عملاً تاماً لا نقص فيه ولا زيادة .

اقمنا يوماً في مناخة نتمتع بمحاسنها ونستريح . صعدنا الى السطح قبل ان احاطت بها الغيوم فكان ادهش ما شاهدناه قريباً منا صخرة قائمة كمسلة فرعون وراء القشلاق ، وحولها بعض البيوت من لونها ، تدور اليها جادة ضيقة زلاّء فتصل الى قرية وراء الصخرة تدعى كاهل. ووراءها على مسافة منها قرية الهجْرَة المعتصمة بقنة اخرى من جبل حراز . ثم سرحنا النظر بالآفاق البعيدة عن حراز فاذا بوادي مَوسنه منبسط امامنا شمالا بغروب ووراءه جبلا حفاش وَملحان ، وبالاودية الشرقية التي اجتزناها امس ووراءها النبي شعيب وتحته بوعان . وهناك قنن عديدة شيد فوقها ابن اليمن حصونه . فهو من هذا القبيل انجيلي يبني بيته يقيناً على الصخرة. وقد الفيناه في هذه الجهة الغربية اكبر همة واكثر نشاطاً من سواه في النواحي الاخرى . دليل ذلك الارض المحروثة والدكات والمنحدرات الخضراء .

سررنا بيوم في مناخة سرورنا بيوم في اب ، فحملنا ذلك ، ونحن شاكرون في الحالين ، على المقابلة بين العاملين . ان عامل مناخة عربي ذو فضل ، وعامل اب عربي ذو فضل ونوافل . هذا حلو الشمائل دمث الاخلاق ، وذاك على شيء من طباع البدو الذين لا يسيئك منهم لا الكلام ولا السكوت . لم يفاخرنا الشيخ الاكوع

بحكم الامام ، ولا تبجح مثل امراء الجيش وبعض السادة في مـــاوية وذمار ، انها لمن حسناته التي تسر ولا سيما من كان مثلنا قادماً من تلك النواحي الشرقية .

في صباح اليوم التالي جاءنا من قبله عدد من العساكر ، ضعفا مـــا صحبنا من صنعاء ، ليرافقونا الى حدود الامام . فاستأنفنا باسم الله السير وشرعنا ننزل ثانية من سطح اليمن ، من اعلى سطوحـــه ، الى أوطأ ارض فيه ، الى وادي حجّام في سفح جبل وسل . وهي اوطأ من وادي مفحق ودونها عقبات كؤودات ، فيها الاول اصعب جداً من التصعيد . اما وسل فدونه جبال وقرى نعد منها ولا نعددها . هذا جبل الطويلة وهو خط طويل مستقيم على الافق الشمالي يتصل ظـله شرقاً بالحيمه . وهذه قنة شبام التي تظلل مناخـة بعد الظهر وهي اعلى قنن اليمن على الاطلاق . وهناك عندما نخرج من ظل شبام يتراءى لنا تجاه مغرب الشمس جبل ريمـه واعلى قنة فيه براع . وهـذه على احدى قنن مسار قريه تشاركه في الاسم وبينها وبين شبام الهجرة . تلك القرية العجيبة الرائعة ، المزدحمة بيوتهـا في نتوء برأس الجبل ، المتراكمة بعضها فوق بعض كأنهـا في لزّها وشكلها وعلوهـا قطعة شاهقة من مدينة نيويورك .

عندما نجتاز الهجرة نطل على وادي حجّام ومنحدراته كالدرج تحتنا ، واحد تلو الآخر ، كلها زاهية بانواع النبات والزهر ، خصبة غضة . وقد امتاز بين مزروعاتها شجر البن الذي يزرعه اليمانيون في الدكات ، في اماكن تظللها الصخور والهضاب ، اي في الشعاب التي لا يصل اليها غير نصف يوم ، كل ما تحتاج اليه ، من الشمس .

انك لتعجب من تلك البيوت بـل الحصون القائمة فوق الصخور

كأنها جزء منها ، في اماكن يكاد يستحيل على الانسان والحيوان الوصول اليها .

ومما مررنا به حصن هو قرية بنفسه . بل القرية هي حصن تعتصم به فرقة من الباطنية الذين ابادهم الزيود بالسيف كما اخبرنا السيد محمد . ولكن الابادة لم تكن على ما يظهر تامة فاقام من نجا منهم في هذا الحصن الذي يدعى العتّارة وفي ضواحيه .

انهم فرع من فروع الاسماعيلية (١) العديدة يدعى الداوودية . وهم قوم اشداء حاربوا الاتراك ثم حاربوا الامام واستعانوا بالاتراك عليه . وهو اليوم يعاملهم في بلاده كما يعامل اليهود ، فيأخذ منهم الزكاة ويسميها الجزية او انه يفرض عليهم الجزية ويسميها الزكاة على انهم لا يدفعون باية حال الا كرهاً ، لان في مذهبهم لا يجوز ان يدفعوا الزكاة الى احد

(١) الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر اخو زيد امام الزيود . من فرقها المهمة النزارية وهم ينتسبون الى المعز الفاطمي يقيمون في بمبي بالهند وعددهم نحو مئتي الف اكثرهم تجار ذوو يسار ، وامامهم الاكبر اغا خان. ومنها السليمانية في اليمن ويسمون ايضاً المكارمة . هم اصلاً من نجران ، من قبيلة يام الكبيرة ، عددهم هناك لا يتجاوز العشرة الاف وداعيهم علي بن محسن المقيم في بدر موالي الادريسي. في الهند من السليمانية نحو الف اكثرهم متوظفون في الحكومة. ومن الاسماعيلية الداوودية وهم من بني مرة اي مرة اليمن لا نجد يقيمون في عدن والحديدة وبيت الفقيه وفي جبلي حراز وهمذان . ويسمون كذلك البُهرة . عددهم في اليمن لا يتجاوز الخمسة الاف . ولكن البهرة في الهند مثل النزارية كثيرون ، يربو عددهم على الثلاثمئة الف ، اكثرهم من التجار ذوي اليسار ، وداعيهم اليوم طاهر ابن محمد سيف المقيم في سوراة . كل هذه الطوائف اسماعيلية كما قلت لانها تنتسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وكلها باطنية لانها تبطن بعض اسرار الدين ولا تعلم منها عامة الناس غير اليسير .

من ائمة او من امراء المسلمين .

نودّع الداوودية في العتّـارة ولا تزال وجهتنا مغرب الشمس ، فنطل على اللكَمة ، قرية من قرى جبل مسار الذي يمتد شمالاً بغرب ، وتحتها العريف ووراءها جبل صِفمان وفيه حصن متّنوح. اما وراءنا فقنة شبام لا تزال تلوح فوق كل الجبال ، توافقنا اربع ساعات الى ان نقرب من وسل .

وما وسل غير بيتين ومقهاية وبستان من القات . وهناك امرأة اخرى تبادر الى استقبالنا وخدمتنا . بـدأنا نشعر بعد خروجنا من صنعاء بوجود النساء في العالم ، النساء العاملات مثل الرجال . سقت المرأة « القراش » وشربنا نحن والعساكر قهوة القشر ، « تقشرنا » [1] وادركنا ها هنا لزوم الفنجان الخاص الذي يحمله السادة مع كيس النوم في اسفارهم . اما الكيس ، اذا كان المسافر يضطر ان ينام في مثل هذه المقهاية ، فهو الزم ما يلزم . هـو كثير الاستعمال في اليمن خصوصاً في الجيش . الا انهم لا يربطونه حول العنق ، كما قد تظن ايها القارىء ، بل فوق الرأس . هم يجعلونه كبيراً لهذه الغاية فيتمكن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخلاً فيمسي اذ ذاك كله ، هو ورأسه ، في الكيس ، فيستنشق ما دام نائماً كل ما يتنفسه من حامض الكربون ولا يختنق . ولا ينهض صباحاً ووجهه كالرغيف المحروق ، كأنه اكل ناراً في نومه .

وهم فوق ذلك يقفلون النوافذ كلها قبل ان يحتلوا الكيس . فما قول سادتنا الاطباء الذين يهددوننا بالموت اذا اقفلنا النوافذ عند النوم . هل جربوا حامض الكربـون في انفسهم ؟ أوَ ليس من الحكمة إذا

(١) تقشرنا على وزن تقهونا .

اضطر عدة اناس ان يناموا في غرفة واحدة صغيرة ان يعتزل كل عن الآخر بهذه الطريقة ، ان يحجر كلٌّ على نفسه في الكيس ؟ اليس خير له ان يأكل هواءه — حامض كربونه — من ان يأكل هواء غيره ؟

ان في احياء الفقراء بالمدن العظيمة كلندن ونيويورك ، حيث تنام العائلة الواحدة في غرفة صغيرة مظلمة فاسدة الهواء ، كثيرين ممن يحسبون الكيس نعمة لو علموا بـه . فهو والحق يقال احسن دواء للقذارة ، ما لازمت القذارة والفقر والشقاء، وما دام الاغنياء المالكون تلك البيوت اخدان الحكومة التي لا توجب عليهم التحسين فيها. ادخل رأسك في الكيس أيها الفقير العزيز ، أنت الساكن في الطرف الشرقي بلندن أو في الحي الشرقي بنيويورك ، أدخل رأسك في الكيس تنجُ ليلاً في الاقل من أنفاس عيالك ومن أقذار بيتك .

أما الكيس الاعظم فهو هذا الفضاء . ولعمري إن من كان هواء الجبل ارثه لا يلقي رأسه تحت سقفٍ ساعة واحدة . إلا أن العربي وعموماً اليماني خصوصاً يخاف هواء الليل ويتأثر من البرد اكثر من سواه . كأن شدة الحر تضعف الدم او تغير في تركيبه فـتـترق الكريات الحمر فيه فيؤثر اذ ذاك البرد في صاحبه تأثيراً مضراً . والذين ينقلون من الاقاليم الباردة ويقيمون زمناً في اقليم حار يمسون مثل اهله .

هذا الرفيق قسطنطين وهو مثلي من الشمال ، الا انه اقام بضع سنين في جدة فصار يخشى الهواء في الليل كأنه سم زعاف . وكم تناقشنا في الموضوع وكنت في حجتي وفي غيظتي اسيء اليه ! فلو سكتنا وعدنا الى اجسامنا ، الى صحتنا تتكلم عنا ، لكنت ولا ريب مغلوباً . لان فيه

من العافية ، وهو الذي يقفل النوافذ كلها ، مثالو وُزع على خمسة مثلي ، أنا الذي لا استطيع أن انام دون ان افتح النوافذ كلها ، لأهلكهم كلهم الجندية . وهذا مع صحة اهل اليمن اجمالا ما حملني على الشك في بعض قواعد الصحة التي اصبحت في الغرب آيات منزلات. وهي لا تخلو من الخرافات. ليس الهواء الطلق وفوائده موضوع بحثنا الآن. الا اني اقول ، قبل ان نترك مفهاية وسل وبستان القات ، قد تكون الرئة في الهواء المفعم بالاكسجين كالاسفنجة اذا امتلأت ماء، والاكتفاء حد الفائدة في كل شيء .

اما وقد اكتفينا من هواء الجبال زاداً فصرنا نتوق الى هواء فيه رائحة الملح، الى هواء البحر،وهو لا يزال بعيداً.لولا ذلك لما كان الحر في وادي وَّجام شديد الوطأة خصوصاً على من كانوا يرتمشون في ظل شبام منذ ست ساعات .

جلسنا للغداء عند بئر قديمة تحت شجرة من الاثب وهي اكبر اشجار اليمن ، فسمعنا اصوات السعادين في الحرج فوقنا واطلقنا عليهم الرصاص ، فبادلونا الاكرام ورجمونا نعم رجمونا بالحجارة ، فكانت الحجارة اشد علينا من الرصاص عليهم ، فارتحلنا من ذاك المكان ، تقهقرنا مغلوبين ولكن سالمين .

عبرنا الوادي ووصلنا بعد ساعتين الى حدود الامام في قاع ضعفان وهناك محطة التجارة بين تهامة واليمن . هناك ضابط الاتصال بين بلاد السيد وبلاد الزيود ، بين السيد الادريسي والامام يحيي . هناك في تلك البيوت والخيم مركز الشيخ حمزه،حيث ينبغي ان نصرف عساكرنا لانهم غير مأذونين باجتياز الحدود ، ونستصحب حرساً من رجاله .

ترجلنا خارج الخيام ومشينا الى بيت حقير بينها ، فاستقبلنا عند

الباب رجل صغير الجثة ، براق العين ، عريض الصوت ، ليس عليه من الثياب غير الفوطة يتزر بها والعمامة . فسألته عن الشيخ حزه فاجاب : ها هو كله ، وقبل ان دعانا الى الجلوس سلم وقال : قد تحيرتم — اي تأخرتم — نحن هنا وعساكر السيد في عبال بانتظاركم منذ ايام . لكم الان الخيار في امرين تبيتون عندنا او تكملون الى عبال . كل شيء حاضر هنا وهناك . من هو امين الريحاني فيكم ؟ فاجبته كما اجاب سؤالي عنه ها هو كله . فلم يضحك ، ولا غيّر لهجته — نحن يا امين تحت امر من اوصانا بكم . نحن قدامكم ووراءكم . على الرأس امر السيد وعلى العين امر الامام . راحتكم علينا وسلامتكم مطلوبة من الله ومنا . فاذا اشتهيتم السفر الآن كان السفر ، واذا اشتهيتم الاقامة فاهلاً وسهلاً .

طابت لنا كلمات هذا العربي فاحببناه . استقبلنا بقلب عار مثل جسمه ، فكان صريحاً مليحاً . وكان شريفاً اكثر منه لطيفاً . فوددنا المبيت عنده لولا اننا خفنا ان نثقل عليه . ولما اعلمناه بما اخترنا من الامرين آسفين قال : خذوا القهوة اذن وامشوا لتصلوا قبل الغروب . فدخلنا البيت وجلسنا لاول مرة في اليمن على مجالس مصنوعة من الحبال ، تستخدم كذلك للنوم ، كالعنقريب السوداني .

الشيخ حمزه تاجر كبير يسير القوافل بين تهامة واليمن الاعلى فتحمل جماله وحميره الكاز والاقمشة الى مناخة وتعود منها حاملة البن والجلود . وهو كذلك الوكيل السياسي بين البلدين المتجاربين ومندوب الامامين . رجل السلم والتجارة والامن الشيخ حمزه . عنده لكل شيء حساب . وعنده حبر وورق وكاتب ، هو ابنه الذكي . عندما صرفنا عساكرنا طلب كبيرهم كلمة من الشيخ الى العامل في مناخه يعلمه

بوصولنا . فراح الى الزاوية في بيت حيث يجلس ابنه على صندوق من صناديق الكاز الى صندوق آخر هو المنضدة ، وامره ان يأخذ الورق ويكتب . فأخذ الكاتب طلحية وقسمها قسمين ، فأشار الاب ان اقسمها ثانية ، ففعل ومرة اخرى حتى اصبح وبيده ثمن منها فقال : اكتب الآن .

من حمزه خادم الامام اطال الله بعمره الى عامل مناخه حضرة الشيخ علي الاكوع . سلام . الجماعة وصلوا بخير وسنوصلهم بخير الى عبال .

اخذ الرسالة فلفها لفافة ودفعها الى العسكري ثم خاطبني قائلاً : هذا يقرأ ويكتب . هو فقيه . وابتسم الشيخ فكانت اول ابتسامة أبرقت علينا من وجهه القاتم العبوس . ثم ركب معنا وشيعنا الى خارج حدوده بابتسامة اخرى .

كنا نقيس الاخطار في الطريق بعدد الحرس . ومن صنعاء الى مناخه اثنان فقط . ومن مناخه الى الشيخ حمزه اربعة . وها نحن نسير في موكب من رجال الشيخ راعنا عدده . فلو لم يكن الخطر قد ازداد لما كان هذا الاعرابي ، وقد اطلعت على شيء من اقتصاده واختصاره في العمل ، يصحبنا بعشرة من رجاله ، ويوكل امرهم وامرنا الى شيخ الحَّجيلة بنفسه — شيخ الحجيلة العظيم في الامس . هو رجل صغير يابس مصفر الاديم ، ذو لحية محنّاة ، وشارب مقصوب ، وعين غائرة . ركب حماره ، وبندقيته بين يديه مطروحة على السرج قدامه ، وسار معتزلاً الجنود العراة ، بعيداً كذلك عنا ، غير مكترث بنا .

دنا مني احد المكارين وقال : هذا شيخ الحّجيلة او كان . وكان في ذاك الحين اكبر قطاع الطرق في هذه النواحي . تحت امره مئة بندق ،

يوقفون القوافل ويسلبونها ويأتون بالغنيمة اليه . من منا في اليمن وفي تهامة كان يجرؤ ان يمر بهذه البلاد في ايام الدولة ؟سألت : وهل كان يقطع الطريق يوم كان شيخ الحـّجيلة ؟ فاجاب بالايجاب ثم قال : كان يأخذ من الترك ويأخذ من العرب . كلهم كانوا يخافونه ولا احد يعترضه بشيء .

سبحان الله !هو الآن رسول الامن والسلام بين القطرين ، وصديق الشيخ حمزه الذي يحسن ولا شك اختيار رجاله واصدقائه لمقاصده التجارية والسلمية المفيدة . اجتذبني خبر الرجل اليه . فسقت بغلتي نحو حماره ، وسلمت فرد السلام . ثم سألت سؤالاً اجابني عليه دون ان ينظر الي : هذا قاع الحـّجيلة وقريباً نصل الى البلد .

كنا وقتئذ نجتاز ارضاً لا سيادة فيها للادريسي ولا للامام ، يصح ان تدعى بلاد الجن . ولولا تيقظ الشيخ حمزه وحزمه لما كان يأمن فيها انسان او تسلم فيها قافلة .هي نقطة الحياد بين عبال اخر حدود السيد ومضارب الشيخ حمزه ، آخر حدود الامام . اما المسافة بينهما فلا تتجاوز العشرة الاميال ، في وسطها الحـّجيلة ، وهي اليوم اثر من آثار الحرب المفجعة . شريط التلغراف فيها مقطع ، والعمد مكـّسرة ، وما تبقى من مظاهر الحكم التركي — مناضد وكراسي ودواوين — رأيناها مبعثرة تحت سقوف متهدمة . اما اهل البلد فلا يزالون مشتتين في تهامة وفي الجبال . لا عجب اذا كان العرب يفضلون الخيام وبيوت القش على الحجارة والخشب . قد هيج هذا المشهد فيّ الاشجان واثار في الشيخ كامن الغضب . وكنت لا ازال استدرجه الى الحديث فقال :

ما الادريسي وما الامام ؟ عندهم كل شيء ، ما عدا الاخطار والفقر .وعندهم السادة يستمعون لهم ويستشيرونهم . بعيد عن الحرب ،

قريب من السادة ، هذه بلية السيد وبلية الامام . ولكان الله يغفر ذنوبهم لو بعدوا عن السادة وخاضوا المعمعة مع الجيوش. عندئذ تنتهي الحرب ... كلنا والله نشتهي السلم . ولكن اين رجل السلم ؟ اين هو الرجل الذي يستطيع ان يصلح بين السيد والامام . لا في عسير ولا في اليمن موجود . لا يتم الصلح الا باحد الكبار ، يجيء من وراء البحار . . .
ثم تنهد وقال : مصيبتنا من الله. فقلت: من الله وحده؟ألا دخل للانسان فيها ؟فقال مستحسناً سؤالي . ثلثها من الله . ولكنه لم يشأ مواصلة الحديث فساق حماره ، فلحقت به وسألته عن الثلاثين الآخرين . فاجاب وهو يستحث حماره ليبعد عني : وثلث من السادة . فسقت بغلتي اليه وسألته معتذراً ان يعلمني بالثلث الاخير . فاوقف الرجل حماره ونظر اليّ وقال : الثلث الاخير ، لا والله بل الاول هو منكم .

ظنني الشيخ معتمد الانكليز ، ولكنه لم يخطيء برأيه في قضية اليمن وعسير . انه اقرب رأي الى الصواب سمعته . وهو ينطبق على العرب كلهم وما يكابدون من السياسة الانكليزية ومن السادة — حيث لا سادة ولا اشراف فقل العلماء — ومن التقادير .

## نساء تهامة

اشكال العرب — الشبان المخضبون — الشعور الطويلة والتزين — السفور — الرعابيب — المرأة واحدة في باريس وفي عبال — الحناء والكحل والطب — شيخ عبال يزورنا — خطبته البليغة — ابنه يعطينا ربالين — طريق عدن وطريق الحديدة الى صنعاء — الاسراء — المغني المكرب — التكييس — المحسن المجهول — ابن شيخ عبال — عساكر الادريسي السود — « الحوانج » والحسناء — العرب والترك — البرنيطة — شمس تهامة — باجل سوقها ونساؤها — مودة عربية باريسية — ضيافة الشوافع — الشيخ محمد طاهر رضوان — القحراء — الرهائن — عساكر الزيود — اطياف الليل — الفجر — البحر .

ان العرب على الرغم لمن المصيبة المثلثة التي تقدم ذكرها لمبدعون مدهشون في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية . وهم على مـــا بينهم من روابط الدين والعنصر واللغة يختلفون بعضهم عن بعض ظاهراً ومعنىً . فلا يختلط اليماني بابن عسير ، ولا هذا بابن الحجاز . يخالطون ولا يختلطون . حتى اذا جردتهم مناسك الحج مثلًا من الثياب فالاحرام لا يساوي بين ذي القرون — الجدائل — وذي الشعر الطويل السبط ، وذي الشعر الكث الجعد الذي يشبه شعر النساء الاوروبيات في هذا الزمان .

انك لتسافر في اميركا مثلًا من طرف البلاد الشرقي الى طرفها الغربي فلا ترى في اختلاف العادات والتقاليد والازياء ما يستوقف النظر او يستحق الذكر . بل قلما ترى اختلافاً ظاهراً او معنوياً . اما في بلاد العرب فكلما انتقلت من جهة فيها الى اخرى تغيرت الثياب والازياء والعادات ، وتغيرت كذلك المساكن . فلو اجتمع الحجازي والتهامي

واليماني واللحجي والحضرمي والنجدي والعراقي لكان في اجتماعهم معرض ازياء وثياب غريب مفيد .

من مناخة الى عُبـــال ! كأنك انتقلت من سويسرا الى بلاد المكسيك . وان جمال عُبال في القاع الفسيح ساعة الشفق ليضاهي جمال مناخة في رأس الجبـــال ساعة الغروب . عبال ، قرية ساكنة مطمئنة بيوتها الهرمية من القش شبيهة بخيام الهنود الحمر في المكسيك . وابناؤها يشبهون العرب في سائر الاقطار بامرين ، يتكحلون ويتطيبون ، وفي ما سوى ذلك يختلفون . فالشبان في شعورهم الطويلة الجعدة المصففة المزينة ، هم اشبه بالبنات لولا الشوارب والعضلات . فهم يدهنون شعرهم بالادهان ، ويربطونه بشرائط من الحرير او الجلد ، ويزينونه بالريش او الزهر او الرياحين ، ويقصونه مثل البنات اليوم ليساوي القذال ، ولا يقصرونه كالرجال . وهم يتزرون بالفوطة مثل اهل لحج . وقد تكون طويلة ملونة مخططة ، فيشدونها على الحقوين ويلبسون فوقها صدرة بيضاء بينها وبين الفوطة زنار من القطن او الجلد للخنجر دائماً ، وغالباً للخنجر والخرطوش . ان اول ما يدهشك من اولئك الشبان شعورهم المزينة كشعور النساء ، وأرجلهم المخضبة بالحناء .

وفي عبال نعود الى السفور ، الى اول الاسلام . في عبال تعددت المدهشات وكان اشدها واحبها الينا النساء ، وقـــد وقفنا في ابواب الخيام يتفرجن على الغرباء . ولا نظن انهن كن اشد تعجباً منا ونحن نتفرج عليهن . الجمال الاسمر نشدناه في كل مكان فما لقيناه حتى وصلنا الى تهامة . والرعابيب ، ها هنّ ذا في عبال . وسيبهجك منهن ما ستراه غداً في باجل . نزلنا في بيت اخلته لنا احدى النساء بامر من الشيوخ ثم جاءت تخدمنا . فسألنا مستطلعين حالها ، فقيل لنا انها متزوجة ، مطلقة ،

وتكره الرجال . اي نعم تكره الرجال . فهل تختلف المرأة يا ترى في عبال عن اختها في عواصم التمدن والجمال ؟

اجتمع في الباب وخارجه الاولاد والرجال متفرجين مستغربين . فجاءت العساكر تبددهم لتفتح الطريق لشيخ القرية الذي بادر الى زيارتنا. وهو رجل طويل القامة مهيب الطلعة ، فخم اللباس،متطيب متكحل حافٍ ، الا ان رجليه المخضبتين تلمعان بالحناء . دخل يحمل بيده السيف وبالاخرى اغصاناً من الحبق قدمها لنا وهو يسلم ويتأهل بنا . هنأنا بوصولنا الى بلاد السيد سالمين ، ثم قال معتذراً : لا يمكننا ونحن في رمضان أن نقوم بما يوجبه علينا الشرف والناموس . انتم الآن في بيتكم وان كان لا يليق بكم . ولكنكم ستنامون والبال مطمئن . عندنا سلام وامان . ولكننا نرجوكم ان لا تحكموا علينا بما يظهر نحن نفتخر والله بضيوفنا ونود ان ننزلهم في بيوت من الرخام والمرمر . فاحمونا وانتم اهل الفضل من العين واللسان .

بعد هذه الخطبة استأذن الشيخ وودع ولم نسعد برؤيته مرة اخرى لان سفرنا من عبال كان ليلاً . ولكنه ارسل الينا ابنه قائد الجيش فاسمعنا خطبة شبيهة بخطبة ابيه واعطانا ريالين قائلًا : رمضان يسود الوجه . انتم ضيوفنا اشتروا ما تشتهون . فقبلنا المال منه شاكرين لان رفضه رفض الضيافة ويُعد اهانة . وشربنا اللبن الرائب تلك الليلة في ضوء النجوم . ولكننا ، على شدة شوقنا اليه ، لم نسر به سرورنا بلطف هؤلاء العرب وسذاجتهم الطيبة . ان اهل عبال من عرب المسارحة المشهورين في تهامة بشدة بأسهم ومحاربتهم الاتراك في مواقع متعددة .

نمنا تلك الليلة على ما يشبه العنقريب من الاسرة ، تحت سماء تهامة

الصافية الحارة ، فما احتجنا فراشاً غير حبل مشبوك ولا غطاء غير شبُك النجوم . ان التعب في النهار مصدر النعم في الليل . فما كان في مراحلنا اليمانية العديدة اطول من هذه الثلاث الاخيرة واوعر (١) لان الطريق من عدن الى صنعاء وان كانت اطول فهي اسهل من طريق الحديدة . هذه تشبه من حدود الامام اليوم درجاً طويلاً عالي الدرجات لا انقطاع فيه وتلك تشبه درجاً منبسطاً عريض الدرجات تتخللها سهول تريحك من التصعيد الدائم . وبكلمة هندسية : اذا مددت خطين واحداً من عدن وآخر من عبال الى صنعاء تكون زاوية الاول حادة ، وزاوية الثاني مستقيمة . والفرق بين الزاويتين لا يقل عن الثلاثين درجة .

اسرينا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكان قمر رمضان كمنجل من فضة فوق قنة شبام . وكان قد نهض الهواء كذلك فانعش فينا ما خدره الحر وأزال ما تبقى في الاجفان من اثر النعاس . بيد انه لم يحرك في احدٍ من الربع اللسان ، الا واحداً كانت عقيرته تذكرنا بالشام ومصر في ما رددت من الاغاني القديمة ، وقد اتجرت انغامها ، ثم اتهمت ، ثم انجدت ، فافسدتها الاسفار ، واكسبتها المسافات على رداءتها ذكراً من الاوطان عزيزاً . ولكنها لم تكن عندي ساعة غناء ، بل ساعة تأمل وصلاة .

يا ذا الجلال الازلي الخفي بشيء من جلالك ، يا ذا النور الدائم

---

(١) وكبنا في المرحلة الاولى احدى عشرة ساعة ، وفي الثانية عشر ساعات ، وفي الثالثة من مناخة الى وسل اربع ساعات ونصف ، ومن وسل الى الشيخ حمزه ثلاث ساعات ونصف ، ومن الشيخ حمزه الى عبال ثلاث ساعات ، اي احدى عشرة ساعة كالمرحلة الاولى .

امددني بقبس من نورك ، يا ذا القوة غير المتناهية ابعث منها فيقواي .

فهل من حاجة ان اصف ما حل بي ، وهذه حالتي الروحية ، من مجرد الصدى بعد السكوت « يا رايحه عالشام خدني معاك » ؟ . ما عرفت صاحب الصوت حتى ولى ، لاننا لولا وطء الدواب كنا كالاخيلة الساكنة السارية في الليل ، فلم تتباين في نور القمر الضئيل الوجوه . ولكني سألت عند الفجر عن المغني فقيل لي انه رافقنا ساعةً اكراماً وعاد الى عبال . وشد ما كانت دهشتي وأسفي عندما علمت انه الرجل الذي كبّسني [1] مساء البارح فحرك الدم في العروق وأزال من المفاصل التعب ومن الاعصاب الاوجاع . ثم نهض وايانا ورافقنا اكراماً دون ان يمن وشاء فوق ذلك ان يسلينا باغاني بلادنا .

فيا ايها المحسن المجهول ، يا ايها العربي الكريم ، ما اخترت لاكرام الضيف احسن من يد مرنة تسكن الآلام ، ومن صوت يغني ، مهما شذ والتوى ، يذكر الغريب بالاوطان . وما كان اشبهك بعكرمة الفياض ، فلم نعرفك مؤاسياً منعماً ، ولم نعرفك مشيعاً مكرماً . جئتنا من الغسق ، وانعشتنا في الليل ، وشيعتنا في ضوء القمر ، واختفيت دون ان تبوح باسمك كالطيف في الظلام . ومهما كان اسمك واينما كنت فانت اخو الانسان ، وامير الذوق والاحسان .

---

( ١ ) من العادات الجيدة في تهامة والحجاز التكبيس . وكلمة تكبيس لفظة تستعمل في اليمن لعلم جاءهم على ما اظن من الهند . فيكبسون المرء من رأسه حتى قدميه . ويدلكون الاعصاب دلكاً ، ويفركون العضلات ويمسدونها بعدئذ تمسيداً . ان المسافر في تلك البلاد لا يستأنس في آخر نهار السفر بشيء استئناسه بالمكبّس . وحتى الصغار هناك يحسنون هذا العلم .

كشف الفجر عن الوجوه فرأينا في الربع بدل شيخ الحجيلة ابن شيخ عبال ، وبدل رجال الشيخ حمزه عساكر السيد ابن ادريس . وهم من العبيد صحيحو الاجسام ، خفيفو الاقدام ، قليلو الكلام . لا يختلف الواحد عن الآخر ، وكلهم سود بغير لون السواد . فهذا كقهوة البن ، وذاك كالشوكالات ، والآخر كالابنوس المصقول . سألت « الابنوسي » وهو يركض ويثير بحافريه الغبار : هل انت دنقلي او سوداني ؟ فاجاب . ابي طلع من البحر وانا ولدت في البر ، في هذا البر . لا اعرف غير ذلك . والمؤكد يا افندي اني اسود . قال ذلك وراح يضحك ويهز عطفيه .

بعد ان اجتزنا قاع عبال وصلنا في الساعة الاولى من النهـــار الى البيحاح وهي قرية فيهـــا مقهاية رحبة نظيفة ، فدخلنا وكنا اول الزائرين ، فخرجت من البيت صبية حسناء ، ممشوقة القوام ، في جلباب انيق الشكل فوق دثار ازرق طويل الذيل . كأنها من بنات المدن وقد تدثرت عند نهوضها فوق قميص النوم . هشت لنـا وبشت واسرعت في عمل القهوة التي لا تزال حتى في تهامة من القشر الا انهم يضيفون اليها بعض الابازير كالزنجبيل والهال — كثير من الابازير — يسمونها حوائج . وكان حسن الصبية يتجاوز قوامهـــا ووجهها الى الذوق والخلق ، فسألت وهي تشب النار : تبغونها بحوائج . فاجاب العبيد صوتاً واحداً بالايجاب . وشربوا هنيئاً وثلثوا . اما نحن ، انا والرفيق قسطنطين ، فكنا نشتهي قهوة البن ... حوائج وهذه الحسناء ؟ امض يا امين .

ومما زاد في كربة الرجال صباح ذاك اليوم ان لاحت لنا ونحن سائرون في القرية حسناء اخرى ، رعبوبة في شعار شفاف ، تنشر

للشمس شعرها . كأنها خرجت من الحمام ، او من مسرح الاحلام . فحثثنا المطايا مسرعين الى القاع ، الى الفلاة ، معتصمين بحديث الشيخ علي بن شيخ عبال . قال وهو يحدثنا عن العرب والترك : ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس . لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجليه . والترك ، ما الترك ؟ هناك - اشار بيده وهو ينتقص اصابعه - هناك ، عند تلك القرية ، تحت ذاك الجبل ، حفرنا الخنـــادق - كنا تسعين ، تسعين فقط - واطلقنا البنادق على عساكر الدولة ، على النظام ، وهم خمسة الاف ومعهم الاطواب . من الفجر الى ان صارت الشمس فوق رؤوسنا مثل كلة مدفع مشتعلة ، كلة نار ، ونحن نطعمهم الرصاص . وعند الظهر ، والله ، ونور هذا النهـــار ، خرجنا من الخنادق تسعين لا ننقص واحداً ، ومشينا الى القاع . كانت الارض مغطاة بالقتلى . مئات من الترك اكلوا رصاصنا وسكتوا . سكتوا الى آخر الدهر . والباقي تشتتوا وهربوا . فما لقيناهم . ولكننا لقينا من البنادق والذخائر والمدافع خيرات . يا له من يوم . كان الواحد من رجالي يأخذ البنادق ويخبيها وراء الخنادق ويعود يفتش عن غيرها ... ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس ، لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجليه ... هؤلاء من رجالي . يمشون بل يركضون كما تراهم الآن ، اثنتي عشرة ساعة كل يوم ولا يتعبون ولا يتذمرون . ولا يشكون غير حلم السيد فهم يغلبون الزيود ، ويأخذونهم اسرى والسيد لا يأذن بتذبيحهم .

سرنا ساعة في قاع المطحلة فخرجنا من ظل الجبال ، ولاحت لنا على الافق غيمة سوداء هي باجل . كنا نمر في طريقنا بنساء لابسات البرانيط وهن يشتغلن مع الرجال في الحقول . ان البرنيطة او الشبقة لقديمة

العهد في تهامة وبعض نواحي اليمن الاخرى ، وهي صنع اهلها ، يلبسها الرجال والنساء ، وكلهم عرب وكلهم مسلمون . لكن الشمس لا تعرف حدوداً في العنصر والدين ، والانسان في مقاومته العناصر الطبيعية لا يراعي التقاليد .

وباي سلاح تحارب هذه الشمس شمس تهامة اذا اضطرك رزقك ان تشتغل او تسافر نهاراً . أبالكوفية ، وهي اذا تلثمت بها تدفع ثائر الغبار والرمال فقط ! قد تقي العيون من وهج الشمس ولكنها لا تقي الرأس من سهام اشعتها الكاوية . اما العمامة فلا بأس بها لاصحاب التجلة والكرامة ، للسادة والعلماء الذين لا يضطرون الى السعي في سبيل الرزق . قد برهن اليماني التهامي في لبسه الشبقة على ان الغريزة في الانسان ، شرقياً كان او غربياً ، مثلها في الحيوان واحدة لا تتغير . ومن عواملها الاولى حفظ الحياة والدفاع عنها . وقد احسن ايما احسان في صنع شبقة من القش متراخية النسج فلا تمنع الهواء واسعة الاطراف تظلل الوجه والقذال ، عالية القمع تحفظ الرأس من سهام الشمس .

ويالها من شمس لا تحجب ظلمها ساعة من النهار . كانت لا تزال في صهوة الافق عندما دخلنا باجل فعرفناها من ساعتها وما وددنا الاقامة في بلدة هي وحدها الحاكمة بامرها فيها . ولكن باجل تنسي السائح لاول وهلة حتى الشمس ، خصوصاً اذا دخلها مثلنا يوم سوقها . هي قرية كبيرة ، بيوتها من القش وبعضها من الاجرّ الاحمر ، يقام فيها سوقان في الاسبوع ، فيؤمها الناس من القرى والمضارب المجاورة وينزلون ومواشيهم ودوابهم في الساحة العمومية فيبيعون ويشترون طيلة النهار .

مشينا بين صناديق من الكاز واثواب من الخـام ، بين المواعين المصفوفة على الارض والاكياس ، بين الابازير والحبوب ، والى جنب كل « فرش » رجل او ولد او امرأة . والناس في الساحة رائحون جاؤون ، والنساء وبايديهم السلال اكثر ما هنـاك يكثرون البيع والشراء . أعجبنا من هذا المشهد مظهره النسوي لاننا لم نرَ في بلاد اليمن ، في البلاد العربية كلها خلا العراق ، من النساء بقدر ما كان في ساحة باجل ساعة دخولنا اليها .

وكلهن سافرات ، يلبسن الشبقات ، واكثرهن حسان الوجوه والقدود . اما البنات فما رأيت منهن غير الممشوقة الهيفـاء ، وهي لولا لونها اشبه بالانكليزية قواماً ونحولاً ، وخفة ومشياً . لكن لبسها قد ينسب لولا السذاجة والفقر الى التهتك . هي تلف ذراعاً من القماش حول وسطها فيصل الى الخلخال ولا يخفيه ، وتلبس فوقه صدرة ضيقة قصيرة لا يتصل طرفهـا بطرفه فيبدو شيء من الكشح بينهما . ولها مشية ينكشف بها الساق ، واذا ساعدها الهواء ، تنكشف الركبة كذلك . ولهـا لسان لا اثر فيه لما في قدهـا ومشيها من حسن وبراعة . سمعناها تشتم الصبيان فاستعذنا بالله . واسفنا لبذاءة تشينهـا .

اما تلك العربية التي « تمشي الهوينا مشية البقر » فلم نجدهـا في باجل . ها هنا حركة كأنها اوروبية . ها هنا نشاط اميركي . وتلك الشبقة على رؤوسهن ورؤوس رجالهن تزيد بالوهم وتبعدك في الانتقال . كنت اظنني في مدينة من مدن المكسيك الجنوبيـة . واغرب من ذلك ان هذه الحركة في بلد اسلامية وفي شهر رمضان . بل في بلد

حرها[1] حتى في شهر ايار لا يطاق نهاراً . ولولا انه جاف لما كانت باجل[2] ، ولما كان في ذا القاع اهله .

استقبلنا بعض رجال القائد العام فأنزلونا بيتاً رأس محاسنه النظافة ورأس الضيافة فيه ذوق جميل ظهر في الحديث وفي الخدمة وكذلك في الطبخ . فضلاً عن شيء في اخلاق الشوافع ، عن شيء من الكياسة بل الاخاء ، يمتازون به عن سواهم . تركونا بعد الفطور وشأننا ثم جاءنا منهم صندوق من العنب الاسود وآخر من الموز ، فأبهجنا الاول لاننا لم نكن نتوقع العنب في هذا الشهر من السنة . ولكننا في تهامة ، فلا عجب اذا نضج في ايار وهو لا يزال حامضاً في صنعاء وزهراً في لبنان .

وبعد الظهر جاء يزورنا الشيخ محمد طاهر رضوان عامل باجل وقائد العساكر الادريسية فيها ، فسلم واعتذر . هو يشتغل في الليل ويصعد صباحاً الى ربوة خارج البلدة لينام . سألنا عن السياسة الاوروبية ، وعن الانكليز ، وعن مصر والهند ، سؤالات دلت على عقل وعلم فيه لا يفتقران ، بخلاف المألوف ، الى شيء من الحكمة والذوق . فقد كان يسأل مستخبراً مستفيداً ، دون رأي خاص يبديه . ولكنه في ما يختص ببلاده كان مفيداً مفضلاً . فعلمنا من حديثه ان القُحراء يسكنون تلك الجهات بين وادي سردود ووادي سهام ، وانهم على العموم من افضل قبائل اليمن واشجعها ومن شد الشوافع بأساً واكرمهم خلقاً . وعلمنا كذلك ان السيد الادريسي

(١) في ٢٤ ايار ساعة الظهر كانت الحرارة في الظل مئة درجة فارنهيت .
(٢) باجل على مسير ثلاثين ميلاً من البحر .

يسير في بعض اموره على خطة الامام في الرهائن . فها هم في البيت تحتنا ، عشرون رجـــلًا ، وفيهم العبيد ، من الزرانيق . سمعناهم في الليل يجوّدون ، وينقرون الدف وينشدون . وما سمعنا من فم اسير اجمل من سورة يوسف انشاداً . سمعنا كذلك « الزامل » في البلد لاول وهلة وسألنا عما اذا كان عسكر السيد ينشد اناشيد عسكر الامام . فقيل لنا بل هم عساكر الامام . فما صدقت حتى عاينت. وقد تأكدت ان بعض الزيود يجيئون تهامة و « يتعسكرون » عند السيد لانه يحسن معاملتهم ويدفع راتباً اكثر من « ابن حميد الدين » ولكنه ساءني في رجال السيد انهم اذا ذكروا الامام يدعونه احتقاراً « ابن حميد الدين » وما سمعنا في صنعاء واحداً من رجال الامام يقول مرة في السيد ما يشتم منه المقت والتحقير .

اقمنا في باجل وسافرنا مساء اليوم التالي . لا سفر في تهامة نهاراً لمثلنا في الاقل . وكانت ليلة ليلاء ، ما خفنا في طرق الجبال الوعرة الموحشة خوفنا فيها ، لان الراكب لم يكن يرى حتى رأس مطيته . وكنت كل مرة تطأ الدابة حجراً فتعثر ارى وهدة انفتحت امامي . واية الوهاد اشد هولاً من وهدة الظلام ؟ ومع ان اسراءنا كان في قاع بسيط فسيح ، بعيد عن الجبال والربى ، فما اطمأن ولا يطمئن قلب الغريب اليه . كانت تمر بنا القوافل كالاطياف فتسلم على اطياف تمر بها ، والامن والظلام رفيقان ملازمان . انه ليطمئنك مثل هـــذا الامن نهاراً في اليمن وعسير فكيف به ليـــلًا ؟ وكيف به في بلدين متحاربين ؟ مهما قيل في العرب ، انهم في حروبهم متمدنون، يحترمون حقوق الناس ويحافظون على ارواح العباد . قد صحبتنا ايها القارىء في طريق التجارة بين البلدين فتيقنت ولا شك ان في هذا الشعب الماجد

الباسل من الحكمة والشرف وكرم الخلق والذوق ما لا يظن مثله في مثله .

وصلنا الساعة الثانية بعد نصف الليل الى مقهاية الطسّم فاسترحنا فيها ساعة ثم استأنفنا السير ، وكان قد هلّ الهـلال فاستأنسنا حتى بنوره الضئيل . وبعد ساعة من سيرنا في ارض رملية تتخللهـا السبخة بين احراج من الشَوْرى ، ذاك الشجر الذي لا ينبت الا بالقرب من البحر في تهامة ، اطلت علينا ربة النور والنار . ولكننا عندما دنونا من البحر شممنا رائحـة الملح واحسسنا بالرطوبة في الهواء ، فاستعذبنا الاثنين .

البحر ! ذاك الخط الازرق على الافق امامنا ، ذاك العلم الازرق على ساحل العزلة العربية ، ذلك الطريق الى الاهل ، الى الاوطان ، الى المدنية ، وفيه الامل الكبير بالعود الى الحيـاة والجهاد . البحر ! ان ألطف ما لقيناه بعد صنعاء وتهامة وابهج ما شاهدته آنئذ العين انما هو البحر .

# السيد الادريسي

## الحديدة

الاشباح – قصر الوكالة البريطانية – احتلالنا القصر – ضرب الحديدة من البحر – خرائب الحرب – القنصل الانكليزي يخرب بيته طمعاً بالتعويض – فريسة الحرب وفريسة السياسة – الاستفتاء – « نبغي الترك » – « نبغي الانضمام الى مصر » – دخول الادريسي – القرض المالي – تأديب التجار – الزرانيق – التفرد والتفكك في الاحكام – بيت الفقيه – بيت بخمسة بيوت وخمسة رؤوس – من من الامامين يستحق الحديدة .

هوذا شبح الحرب ! من مدافن الآرغون ، من خرائب فرنسا في الشمال جاء يلاقينا في الحديدة . هو اول من حيّا صامتاً عند دخولنا البلد ، اول من وقف في الطريق يلفت الى حاله نظر الغرباء . ثم تبعنا كالظل ، وما توارى عن الابصار الا في جوار السلطة والمدنية . فلا عجب ، ونحن ضيوف الاولى وصبيان في بهجة العيد في فناء الثانية ، اذا نسينا كما ينسى العابر شحاذاً في الطريق . نسيناه ساعة دخلنا القصر الذي يقيم فيه الدكتور محمد فضل الدين وكيل بريطانيا العظمى في الحديدة وسفيرها الى السيد الادريسي .

صعدنا الى الطابق الاول فاذا فيه صناديق من حديد ، صناديق كبيرة ذات اقفال ضخمة ، كانت مملوءة في الماضي بالصكوك والاوراق ، وبالذهب والفضة . هوذا شبح آخر يحيينا صامتاً ، شبح القوة وراء العروش ، وفي الحروب والجيوش ، شبح المال . انما نحن في دائرة البنك العثماني ، ولم يبق منه غير هذه الصناديق الفارغة وبعض المواعين المكسرة .

صعدنا الى الطابق الاعلى ، الى مكتب الوكيل وبيته ، ففتح لنا باب من خشب الهند فخم كبير ، نقشه يبهر الابصار ، ويؤهله لاعلى مقام في دور الآثار ، فدخلنا الى ردهة كبيرة مستطيلة تشرف على البحر مفروشة بالدواوين الهندية والطنافس العجمية ، ومزينة جدرانها بالرسوم الهندسية والايات القرآنية . وفي سقفها العالي من صناعة النقش بالدهان ما يحيّر شكلاً ولوناً ودقة غواة الفن . والى احد طرفيها ، بين السقف والارض ، ردهة خاصة تحجبها شعرية من الخشب الهندي ، كانت مُعدة للحريم يطللن منها على القاعة تحتهن في ايام العيد وفي ليالي الانس والطرب . وهوذا شبح آخر يستقبلنا صامتاً ، شبح الثراء والجاه ، شبح القصف والترف ، شبح السرور واللذات .

كان القصر الذي دخلناه لاكبر الاغنياء في الحديدة ، بناه لعينه وقلبه ، وبذل في سبيل ذلك نصف ثروته . فصار بعد موته اجاراً للبنك العثماني ، ثم بعد الحرب فتحاً للوكالة الانكليزية . وها نحن اقتداء بالانكليز نحتل قسماً منه . فان حضرة الوكيل الذي استقبلنا مرحباً خيرنا في امرين اما ان ننزل في البيت الذي اعده لنا واما ان نقيم واياه في القصر . ومن ساح مثلنا في اليمن قلما يسيء الاختيار وقلما يستحي بذلك . قلنا نحدث انفسنا : من المؤكد ان ليس في الحديده كلها مثل هذا القصر . ثم خاطبنا صاحبه قائلين ، ما يصلح لحضرة الوكيل يصلح لنا . فرحّب ثانية بنا واصبحنا من تلك الساعة شركاءه بما يحسبه نعيماً ليس من جاء من الجبال فقط بل من يجيء من وراء البحار .

عجبنا لسماحة الوكيل وكرم اخلاقه عندما عدنا الى المرآة بعد غيبة طويلة . فاننا كنا ، بعد شهرين فطمنا عن الشعر المشط والمقراض ، كابناء عسير في رؤوسنا وكالروس البلشفيك في لحانا .

ولكنه ، أمر اولاً باعداد الحمام ، ثم استحضر المزين الهندي ليعيد الينا شيئاً من الرونق في الاقل .

وكانت باسم الله بداءة احتلال دام شهراً فقط ، وبداءة صداقة لا تقاس بمقياس السياسة ولا تقيد بعوامل الاحتلال واسبابه . اما الاشباح فكنا محاطين دائماً بها . شبح الحرب الذي لقيناه في الطريق شاهدناه من السطح في كل مكان . وشبح المال كنا نمر به كل مرة نخرج من القصر ونعود اليه . وشبح اللذات كان يحف بنا ويرف فوق رؤوسنا ليل نهار ويؤلمنا في ساعات يسودنا فيها ما يسود الرجال . الا انه لم يكن يحزننا حزناً شديداً غير الاول . قد هربنا من دمار الحرب وويلاتها ، من ظلماتها في العقول ، من فسادها في النفوس والقلوب ، من سمومها في الامم المتمدنة . وها هو شبحها في الحديدة يذكرنا بها ويرينا شيئاً منها .

ضربت هذه البلدة من البحر مرتين ، الاولى سنة ١٩١٢ في الحرب التركية الايطالية ، والثانية سنة ١٩١٨ في الحرب العظمى عندما حمل الجنرال آلنبي على الترك في فلسطين فكان ضرب الحديدة جزءاً من الهجوم العام . وكان قنصل الانكليز يومئذ على ظهر البارجة التي كانت تصدر منها الاوامر باطلاق المدافع ، وكانت دار القنصلية بامر القنصل ، الهدف الاول لقنابل الاسطول ، لان فيها حسب ادعائه اوراقاً سرية . ولكن الاشاعات لا تثبت الادعاء . قيل ان القنصل دمر بيته ، أمر بتدميره لان فرشاً شاء حرقه طمعاً بالتعويض . وقد دفعت له الحكومة بعدئذ اضعاف قيمته تعويضاً . هذا شبح الحرب واثر من افسادها في الاخلاق .

وفي الحديدة واهلها غيره من الآثار المحزنة مما كنا نشاهده ونسمع

به كل يوم . ميل في الناس ولا حجة ، أمل ولا يقين ، شكوى ولا عمل ، تحزب ولا قوة ، قوة ولا قصد ولا حسن نيـــة . وبنايات في المدينـة ولا سقوف ، وسقوف ولا نوافذ ، ونوافـذ ولا خشب ولا زجاج ، وجدران نصفها في الجو ونصفها ردم تحتها ، واخشاب تحت الردم وآمال ، وبينٌ في بيوت ذهبت القنابل بحياة اهلها ، وحزن تحت سقوف هجرها الناس اما خوفاً واما فقراً ، ووحشة في اسواق كانت يوماً عامرة بالتجارة . أضف الى هذا كله ما قد يكون السبب في ذلك كله اي صورة حكم او « لا حكم » لا نرضاه لمولانا السيد ولا لاصحابنا الانكليز .

الحديدة التي كانت من اجمل البلدان العربية على البحر واكبرهـــا تجارة . هي اليوم مجردة عن الاثنـــين . فريسة الحرب هي وفريسة السياسة ترى نفسها بين عوامل سياسية ودينية تتجاذبها وتتقاسم ما تبقى فيها من حيـــاة ومن امل . اجل ، هي بين الانكليز والسيد والامام مثل فتاة بين ثلاثة يخطبون ودها ، ولكن التحاسد بينهم يفوق الحب والاخلاص . فلا تركن الى احد منهم ، بل هي تخشى اذا مـــا اظهرت ميلها ان تفقد الثلاثة ، وهناك الشر الاكبر ، وهناك الفوضى .

اما الشوافع فيها فهم لا يميلون الى الامام ولكنهم لا يرون في حكم السيد ما يعيد الى البلد شيئاً من تجارتها وبهائها . وحضرة السيد لا يقدم على عمل سياسي او اقتصادي يحسن فيها التجارة والحياة لانه لا يتأكد انها ستكون دائماً في حوزته . والانكليز لا يتدخلون في غير ما فيه حفظ الامن والنظام لان موقفهم فيها انما هو موقف المقامر . فهي بيدهم الورقة المجهولة في الصفقة الاخيرة ، وبكلمة اخرى هي الفكرة المكنونة في سياستهم مع الامامين .

وهناك فئة من التجار يبغون امام الزيود . فهم لا يرضون لا بالسيد ولا بالانكليز ، لانهم لم ينالوا من احدهما غرشاً واحداً تعويض مـــا خربته مدافع الاسطول . وتراهم ، اذا ذكروا التعويضات ، يعودون دائما الى قصة القنصل الذي هدم بيته حباً بها . على ان الانكليز يتملصون من دفعها الى الاهالي بقولهم ان ذلك متوجب على صاحب الحديدة ، وقد اهدوه المدينة ، حبـــاً به او نكاية بالامام على السواء . ولكن صاحب الحديدة يبغي مع الهدية شيئاً من اسباب الحكم الاولى ، شيئا من المال . فمن اين يجيء به ليدفع بعض التعويضات عن الانكليز . وهو لا يجمع من اهلها زكاة ما يكفي لادارة شؤونها .

ان البلايا مثل المال يجذب بعضها بعضاً . فان ادارة الحديدة في يد خمسة من الحكام اولهم اسماً عامل السيد واخرهم رسماً الوكيل السياسي وبين الاثنين مدير الجمرك ومدير الشرطة ورئيس المينـــا يشار كونهما المسؤولية ووجع الرأس . الا ان الوجع الاشد هو في العـــاصمة في جيزان . لذلك فوجئت الحديدة ذات يوم بارادة ادريسية محورهـــا قرض قيمته ثلاثون الف ليرة ، تُعطى به صكوك على الجمرك . فجس العامل والوكيل نبض البـــلد واشار بنصف القيمة . فتردد التجار وتأوهوا واعتذروا . وما كان السبب في ذلك غير الخوف وعدم الثقة . فانهم اذا اشتركوا بالقرض اليوم وانتقلت المدينة غداً من يد السيد الى يد الامام فمن يدفع الدين يا ترى ؟ لا لوم عليهم اذن ولا لوم على حاكم البلاد . وليت شعري من الملوم ؟ الحالة السياسية وحدها ؟ لا ريب عندي ان وجع الرأس في دار الاعتماد بعدن اشد منه في الحديدة وفي جيزان .

وبين جيزان وعدن وصنعاء قلب مدينة يحترق و كيس مدينة يئن .

قلت ان الحديدة تخشى ان تظهر ميلها وهي في هذا المثلث السياسي . فقد اقدمت على ذلك مرة وكانت منهـــا الاولى والاخيرة . عندما ضرب الانكليز البلد وانزلوا فيها عساكرهم الهندية ظن النـــاس انها بداية الاحتلال فسر" التجار بذلك خصوصاً" الهنود منهم . وبعد ذلك — بعد ان غيرت الحكومة الانكليزية في سنة واحدة ثلاثة قناصل في الحديدة ومنهم صاحب التعويضات الذي مر" ذكره ، وكلهم في الحمق والتصلف واحد ، غيّر التجار والاهالي رأيهم بالانكليز . فلما سئلوا رسمياً كما سئل السوريون مرة . من تريدون ان يحكمكم ؟ اجابوا : بصوت واحد : الترك . فقال القنصل : هذا مستحيل . فقالوا : نبغي اذن الحكومة المصرية ، نبغي الانضمام الى مصر .

ثم جاء احد اعوان المعتمد في عدن يمثل آخر فصل من روايـــة الاستفتاء فجلس في القصر ودعا اليه تجار المدينة واعيانها وسألهم ثانية فاجابوا كما اجابوا سابقاً . فأفهموا ان رجوع الترك الى الحديدة أمر مستحيل ، وكذلك حكم المصريين فيها . في تلك الاثناء اي قبل انتهاء الفصل الاخير دخل المدينة معتمد السيد على رأس طابور من العساكر الادريسية ، فختمت الرواية في الشهر الاول من سنة ١٩٢١ بالاحتلال الادريسي الذي استمر منذ ذاك الحين . ليست هـذه النتيجة الواحدة لذاك الاستفتاء . ان له نتيجة اخرى ظهرت خصوصاً في التجار الذين جهروا بميلهم الى الاتراك والى المصريين .

عندما تأسست الحكومة الادريسية في المدينة استدعى العامل اليه التجار الخمسة الذين تولوا الزعامة فتكلموا باسم الاهالي ، واشار عليهم ان يزوروا حضرة السيد في جيزان . فاعتذروا وترددوا . ثم استدعاهم ثانية ، وبينما هم ينتظرون في دار الحكومة احاطت بهم العساكر ،

وكانت الركائب حاضرة، فاركبوهم وساقوهم الى العاصمة التي هي على مسيرة اربعة ايام من الحديدة ، فأنزلوا في القلعة وظلوا سبعة اشهر اسراء فيها ثم اعلموا بذنبهم وبالجزاء فدفع من يستطيع الجزاء مالاً وقدم الاخرون ابناءهم رهائن « المحسوبية » والاخلاص. اما حان لامراء العرب ان يعدلوا في ما يمس بكرامتهم الشخصية عدلهم في غيرها من الشؤون ؟!

لا عجب اذا كانت الحديدة تخشى الاستفتاء اذن ، وتخشى اظهار ميلها الا سراً وهمساً في بعض الاحايين . واذا فعلت تقع على ما اظن في شرك الفوضى وما يتبعهـا من الغزوات ، من السلب والنهب والتدمير . اما الانكليز فالعرب لا يبغونهم محتلين ، لا يبغونهم على الاطلاق . ولو لم يكن الوكيل السياسي مسلماً لما كانوا يقبلون به مهما كانت وظيفته ومسؤولياتها . اما اذا قاموا يطلبون الامام ، قبل ان يقرر الانكليز ان يعيدوا الحديدة اليه ، فيضربهم السيد ويستنفر عليهم الصحراء ، وقد يغري بهم الزرانيق . واذا قاموا يثبتون حكم السيد فيها ويعلنون رغبتهم رسمياً فقد يحرك الامام عليهم اما زيوده واما من يستطيع استنفارهم واستغواءهم كذلك من الزرانيق .

الزرانيق اكثر القبائل التهامية عدداً واشدها بأساً ، واقلها صدقاً ووفاءً . هم لا يطيعون الامام ، ولا يطيعون السيد ، ولا يأبهون بالانكليز . هم مستقلون من كل حكم ، وكل نظام ، وكل سيادة غير ما لشيوخهم منها . بل هم ، مثل اشراف ذي الحسن في الحجاز ، قطاعو طرق وقرصان بحر ، يهربون السلاح ، ويتاجرون بالرقيق ، وبما عندهم من قوة حربية . بلادهم في سفح جبال اليمن بين الحديدة وزبيد في طرف تهامة الجنوبي ، وميناؤهم الاول الطائف في خور

ُغليفقه . انهم يُقسمون قسمين ، زرانيق الشام اي القسم الشمالي ، وزرانيق اليمن اي القسم الجنوبي . اما قوتهم الحربية فتدنو من عشرة الاف بندق ، ثلثاها في زرانيق اليمن .

كان الزرانيق ايام الترك كما هم اليوم عصاة عتاة يأخذون المشاهرات من الدولة ، ويقطعون مع ذلك اسلاك التلغراف ، وينهبون في البر القوافل وفي البحر السنابيك . اما شيوخهم فلا ينقصهم في السياسة ختل ودهاء . هم دائماً يمثلون في رواية تهامة السياسة دورين وثلاثة ادوار في وقت واحد ، ثم يميلون في النهاية الى من يزيد في المال او في السلاح . كان احد شيوخهم يفاوض مرة الانكليز ليستنصرهم على الترك ويطلب سلاحاً منهم وذخيرة . ثم قبل وظيفة من والي اليمن فصار قائمقام زبيد. ثم نصر قبيلة القحراء عندما أسرت البعثة الانكليزية في باجل ، ثم ساعد من سعى في اخلاء سبيلها . فلا عجب اذا مال قسم من الزرانيق الى الامام يحيى اليوم وقسم الى السيد الادريسي .

انت تذكر ما قيل لنا في باجل بخصوصهم ، وتذكر انهم أرونا الرهائن . اما الحقيقة فغير ما سمعت . واليك الخبر اليقين. جاء عدد من الزرانيق ، خمسة وعشرون ، الى الشيخ محمد طاهر رضوان يقولون للسيد . القبيلة كلها ، ونحن الكافلون ، بشرط واحد. فانخدع القائد واعطاهم ما يبغون من المال . ثم عادوا : الرسالة لا تتم الا بدفعة اخرى . فلم ينخدع القائد ثانية ، فقبض عليهم وأسرهم وقيدهم بالحديد وادعى لغرض سياسي ان الزرانيق كلهم مع السيد — وهذه رهائنهم .

قلت ان في الزرانيق سياسيين دهاة كما ان فيهم لصوصاً عتاة . لما أسر قائد باجل رجالهم قالوا : هؤلاء لصوص تتبرأ القبيلة منهم ،

وانكروا انهم من الزرانيق . ولو كان من مصلحتهم يومئذ ان يحاربوا الادريسي لكان اولئك الرهائن من سراة القبيلة ، فيتذرعون بهم ويعلنون من اجلهم الحرب على امام صبيا وجيزان . ان عند الزرانيق شيئاً كذلك من الشرف ، شرف اللصوص ، ولهـــم الجواسيس في الحديدة وفي باجل وفي بلاد الامام يحيى مثل ما للحكومات المتمدنة . جاءهم الخبر ذات يوم ، كانوا ناقمين فيه على السيد وعلى الانكليز ، ان سنبوكين من السلاح أقلعا من الحديدة ووجهتها جيزان ، فاسرع قرصان الزرانيق شمالاً ، فلحقوا بالسنبوكين . قطعوا عليهما البحر ، اطلقوا عليهما الرصاص فقتلوا عسكرهما وعادوا بالسنبوكين غنيمة . ولمـــا افرغوهما علموا ان احدهما ملك نوتيٍ في الحديدة لا ملك الحكومة فاعادوه اليه ! ان لهم حتى في اللصوصية قواعد يحافظون عليها وحقوقاً يحترمونها . واغرب من كل ذلك ما نراه في بلادهم من الادلة على ما في البلاد العربية من التفكك في عرى الاحكام والتفرد المضعف المهلك في السيادة .

ان في قلب تلك البقعة من تهامة مدينة كانت قديماً مشهورة بالعلم والصناعة ، هي بيت الفقيه الكائنة بين زرانيق الشام وزرانيق اليمن . وبيت الفقيـــه حرة مستقلة ذات سيـــادة مطلقة ، لا تعترف باحد من الائمة ، ولا باحد من الاجانب ، ولا باحد من الزرانيق سيداً عليها . بل هي نفسها مقسومة خمسة اقسام ، خمسة احياء . لا يزيد سكان الحي الواحد على الالف ، وكل حي هو مدينة حرة مستقلة يحكمه باسم الله وباسم الالف حراً مستقلاً شيخٌ لا صلة بينه وبين زملائه ، انـه لا عجب ما كان وما يكون في الاحكام الحرة المستقلة . وبيت الفقيه مشهورة اليوم بتعصب ساداتها ، وبفسق نسائها ، وليست في منسوجاتها

كما كانت في الماضي .

لا عذر لحضرة الامام يحيى بهذا التفكك في حكمه الشريف . لا يمكننا ان نعزو ذلك الى النفوذ الاجنبي والدسائس الخارجية ، اذ لا اثر لذلك في بيت الفقيه وفي الزرانيق . ان مثل هذه القبائل العاصية العاتية ، المتاجرة بقوتها ، ومثل هذه المدن المنحطة في حريتها واستقلالها لاكبر العقبات في سبيل القومية الناهضة والوحدة العربية . ان البلية كل البلية في هذا الجهل المسلح ، هذا الاجرام باسم القومية ، هذه اللصوصية باسم الاستقلال . ليبدأ كل امير في بيته ، فيحكمه باسم الله حكماً قاسياً عادلاً ، ليحكمه بعدل لا يعرف الرحمة والحنان ، ليحكمه بيد من حديد وبقلب لا يرى غير الحق ، كما يفعل اليوم ابن سعود السلطان عبد العزيز . فلا يهم اذ ذاك من يستولي على الحديدة وعندي ان من يستطيع من الامامين ، امام صنعاء وامام صبيا وجيزان ، ان يغلب الزرانيق ويؤدبهم ويدخلهم في حكمه يستحق ان يكون صاحب الحديدة .

## اديان واشجان

العيد – نستقبل المهنئين – معرض من الشعوب – التزاوج المختلط والنسل – لا حياة في الدين – لا دين في الترفض – الهندوس – الفارسي كيس صواب – « ادين بكل الاديان » – الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية – محاورة في سر الوجود والخلود – محمد فضل الدين الصوفي – التقنص – العقـل سجن الروح – قصة الحكيم الصيني والفراشة – رموز زائلة لحقائق خالدة – صوفي يؤسس ملكاً في تهامة – الاولياء والتوحيد – وصف حلقة الذكر – الكرامات الشعوذات .

العيد ! وحق لنا ان نعيد لاننا اشتركنا في رمضان مع الزيود ومع الشوافع ، فقلّ نومنا واكلنا ، وحرمنا طيبات الحياة فقلت ذنوبنا ، وطالت مثل النساك شعورنا ، وكثرت تقشفاتنا واوساخنا . العيد ! نهضت صباح اليوم المبارك فارتديت افخر ما عندي ، قميصاً حجازية بدوية ، و « قدميـة » مكية ، وكوفية مزركشة هنـدية ، وعقالا مقصباً شريفياً ، ونزلت اهنيء مضيفي وصديقي محمد فضل الدين .

في ردهة الاستقبال نافذة كبيرة واسعة عالية تشرف على البحر فرشت بسجادة ووسائد فاصبحت ديواناً يجلس فيه الوكيل المحترم . هو عرشه ساعة الاستقبال ، ومكتبه في غير الامور السياسية ، والمرصاد الذي يرصد منه ما حام على الافق من المراكب والبواخر والقرصان وتجار الرقيق . وجدته صباح العيـد جالساً على العرش معتماً بعمامة هندية وافرة ، طويلة الذؤابة ، باهرة الالوان ، وبيده سفر انكليزي في الفطريات كان يترجمه الى اللغة الهندستانية .

سلمت وهنأته باسم الله ، فاعجب بقيافتي واشركني في عرشه . ثم

دخلنا في موضوع لا صلة له ظاهراً بالعروش والعمائم او برمضان المبارك والنوافل الروحية . ولكنه يتصل باطناً بها كلها . الدكتور محمد فضل الدين رجلان مثل كل ذي فكر وعلم وحجى ، رجل يعرفه الناس والحكومة البريطانية وهو الملازم فضل الدين من اطباء الحكومة الهندية : ورجل لا يعرفه غير الخاصة من الناس وهو محمد فضل الدين من لاهور في الهند ومن كل مكان في الفلسفة الروحية .

اما الرجل الاول اي طبيب العيون ووكيل بريطانيا السياسي فنتركه للناس . ليس فيه ما يميزه عن زملائه الاطباء والوكلاء السياسيين . ولكن الغريب الجميل هو في الرجل الثاني ، الرجل الهندي الذي لم يفقد في معاهد الغرب العلمية وفي الدوائر السياسية جمال ارثه الشرقي . ان لفضل الدين قلب شاعر ، وروح صوفي . اضف الى ذلك انه جبلي . هو من قرية صغيرة في جبال الـ « بنجاب » التي تضاهي بجمالها جمال لبنان .

دخلنا في الموضوع الذي اشرت اليه ، وفيه تتشابه العمائم والتيجان وتضمحل اشكالها الظاهرة ، ووقفنا عند اول ابوابه لنستقبل اول مهنيء بالعيد السيد محمد العربي عامل الحديدة ومندوب الادريسي فيها . السيد محمد ابن عم حضرة الامام ولكنه مصري المولد والقيافة والحديث . حلو الشمائل دمث الاخلاق وقد كان في نيتي ان ازور المدينة ذاك اليوم مستطلعاً حال اهلها فجاءت المدينة تزورني في القصر لتهنئني وشريكي في العرش بالعيد . جاء الحديديون زرافات ووحداناً من موظفين وتجار ، وسوقة وسادة ، ونوتيين وادباء . فيهم من اجناس الشعوب العربي والسوري والمصري والسوداني والصومالي والهندي والجاوي والايراني ، وفيهم من تعدد المذاهب والاديان الشافعي

والمالكي والحنفي والزيدي والجعفري والاسماعيلي والماروني [1] والبارسي عابد النار ، والهندوسي عابد البقرة والبوذي عابد اللاشيء في اللانهاية السرمدية . وفيهم من القيافات والازياء العباءة والعقال ، والجبة والعمامة ، والصدرة والسروال ، وقميص النوم والنعل ، والفوطة والعري الوانا واشكالاً . اجل ، قد عرض امامنا صباح ذاك اليوم معرض شعوب ، ومعرض اديان ، ومعرض ازياء في الملابس والعري قلما نشاهده في مكان آخر .

تعددت الشعوب في الحديدة ، بل في تهامة ، وامتزج دم السوداني بدم العربي ، ودم الصومالي بدم الهندي ، ودم الجاوي بدم الايراني ، فكانت النتيجة مستهجنة مستنكرة . ان صفاء الدم في النسل لاعز ما في الامم . وان حفظ العنصر والنسب مع الرقي العقلي والادبي لاجمل ما في الشعوب . أفلا تتقزز من هذا الشريف الغائر العين؟ الضخم الشفة الذي يجري في عروقه الدم السوداني وهو من ابناء بنت الرسول ؟ أو تروقك طلعة ذاك السيد صاحب العين اللوزية (جاوية صينية) والانف المفلطح ( تكروني دنقلي ) واليد العربية الجميلة ؟ وهل تسرك رؤية ذاك ، هندي الام ، صومالي الاب ، عربي اللسان اسلامي الدين ، ولا شيء فيه من صدق العقيدة ومن الفصاحة والحسن والبراعة ؟ فلا هو مسلم ، ولا هو عربي ، ولا هو صومالي ، ولا هو هندي ، لا في اخلاقه ، ولا في وجهه ولا في ملابسه .

ان من يعتقد من العلماء بان امتزاج الشعوب بالتزاوج يحسن النسل ليغير عقيدته ، لينبذها اذا جاء الحديدة . ولو كان ذا الامتزاج يقرب اصحاب الاديان والمذاهب بعضها من بعض لكانت تشفع هذه الفضيلة

(١) هو ترجمان قنصل فرنسا في الحديدة .

الواحدة ، خصوصاً في الشرق ، بسيئاته كلها . ولكن الهندي يظل هندياً ، والبارسي يظل بارسياً ، والمسلم يظل مسلماً ، ولو امتزجت في سليلة كل واحد منهم دماء الشعوب كلها .

كنت جالساً انا وفضل الدين نشرب الشاي ذات يوم فجاءه زائراً احد الهندوس ، اصحاب السراويل الشفافة التي تهف حول الجنبين وتبوح بكل اسرارهما ، فسألني ان اقدم له بيدي فنجاناً من الشاي . ففعلت ، فرفض . ثم قدمه له فضل الدين فرفضه كذلك باسماً . والسبب في رفضه فنجان الشاي ؟ ان هذا الهندوسي يتنجس منا من المسيحي ومن المسلم ، بل من كل من لا يعبد البقرة مثله . ولا خجل في فعلته ولا حياء .

وهناك من يلبس دينه كما يلبس ثيابه ، وهي قديمة ولكنها نظيفة ، باليد اليسرى دون اعتناء . ان المعلم الكبير زرادشت رعية في الحديدة لا يتجاوز عددها الواحد الفرد . وقد كان يزورنا كل يوم فيزيدنا علماً بدينه الجميل وبحاله . هو خان باهادور الفارسي اصلاً ، الهندي بلداً ، الزرادشتي ديناً ، الانكليزي لساناً ، خان باهادور ، وحديثه كزقزقة العصفور ، فيه تكسير وفيه تنغيم . على رأسه عمارة ابناء قومه شارةُ مذهبه ، وعلى قامته الطويلة الـ « فراك » الاسلامبولي مزروراً تحت الذقن ، وتحته بنطلون افرنجي ابيض عريض ، وعندما يجلس يظهر خلال الـ « فراك » طرف قميص بيضاء تدعى في دينهم «سُدْرا» اي الصراط المستقيم ، وفيها جيب صغير يدعى « كيس صواب » اي كيس الافكار والاعمال الصالحة .

— ولكن الكيس فارغ يا مستر امين . لا شيء في «كيس صواب»

— السبب لا شيء . تسألني ؟ تراني وحدي في هذه المدينة . منذ

عشرين سنة انا وحدي في الحديدة مقيم بين اناس لا يعرفون شيئاً من ديننا . يظنون اني اعبـد الشمس . ومَن يعبد الشمس في الحديدة ، هذه الشمس الظالمة المحرقة ، من يعبدها ؟ وكيف لا يعرفون الحقيقة ، وكلهم مثلي بشر ، ابناء إله واحد ؟ بدأت اشك في هذا الدين ، في ديني . لو كان الاله العظيم يهتم للحقيقة لما تركها وحدها في ادارة القهوجي (١) وقد يكون يهتم يا مستر امين . وقد لا تكون الحقيقة كلها محصورة بالـ « سدرا » . كنت اشغل فكري بالآخرة ، فأين أدفن مثلًا وليس في هـذا البـلد برج من ابراج السكينة ؟ (٢) في الهنـد نضطر ان نلبس مثل الهندوس ، ونتكلم لغة الهندوس ، ونطهر « نعمّد » ابناءنا ببول بقر الهندوس . البارسي يا مستر امين يقتبس كل شيء . ها هنا في الحديدة ترى المسلم والبنيان (٣) والمسيحي وكان فيها اليهود ، وتراني انا خان باهادور البارسي الوحيد فيهـا اقتبس كل شيء . ادين بكل الاديان . انا مسلم ويهودي ومسيحي وهندوسي وبارسي ساقط لا ينفع ... الصلاة ؟ اصلي قليلًا . فلو كنت اصلي مع الجميع لما بقي لدي وقت للقهوجي وبواخره . أتعرف يا مستر امين ان اليهود والمسلمين والنصارى اخوان لنا ، هم منا . بيننا وبينهم قرابة تتصل بزرادشت وابراهيم الخليل . من هو ابراهيم الخليل؟ ألا تعرف وانت العالم المطلع على كل شيء ؟ ابراهيم الخليل هو زرادشت بنفسه (٤)

---

(١) خان باهادور في الحديدة وكيل شركة بواخر القهوجي بعدن .

(٢) برج السكينة عند البارسيين هو برج عال يضعون فيه موتاهم ليأكلها العقبان.

(٣) هم الهندوس او التجار منهم .

(٤) هذا رأي في ابراهيم الخليل غريب ، وقد سمعت في الهند اغرب منـه . اخبرني احد العلماء هناك ان بوذا هو التجسد العاشر لخليل الله .

هو نبينا ونبيكم . اضطهد في ايران فسافر الى فلسطين . زرادشت هو خليل الله وخليل الله ابراهيم الخليل هو زرادشت . لا تتعجب اذن من قولي اني مع الكل . نعم يا مستر امين انا مع الكل . ولكني لا اخاف لاني متمسك بالـ « سُدْرا » . ألبسها كما ترى دائماً ، و « كيس صواب » لا يظل فارغاً دائماً ان شاء الله . عندي خادم مسلم لا يعرف من دينه غير الله كريم . اسمعه يرددها دائماً . فصرت اردها مثله : الله كريم . اذا كان صراط خادمي ، الصراط المستقيم فانا معه . واذا كان في ضلال فهذه « سدرتي » يا مستر امين وهذه كذلك الـ « كُسْتي » . حياتي مضمونة في الاخرة وان كانت في هذه الدنيا لا تساوي مسماراً في باخرة من بواخر القهوجي . الشركة الدينية ، لضمان الحياة الابدية ، مؤسسها خان باهادور ، هي شركة قوية يا مستر امين . واحسن من الشركة التي تضمن البواخر للقهوجي . الا تريد ان تشترك فيها ؟

البارسيون يغسلون اولادهم ببول البقر [1] والعادة هندوسية اتبعوها في الهند خوفاً من الاضطهاد . لكنهم يربطون على وسطهم اثناء الغسل الـ « كستي » اي زنار الايمان ، وهو شريطة بيضاء من صوف الغنم تغزلها نساء الكهان . ويرددون هذه الكلمات : الافكار الصالحة ، الاقوال الصالحة ، الاعمال الصالحة . وكل ما يحرز البارسي منها يضعه في « كيس صواب » ليوم الحساب . كان صديقنا خان باهادور يرينا الكيس ، وهو شارة قدر طابع البريد على قميصه ، ويقول : الكيس كبير يا مستر امين ولكنه فارغ ... الله كريم . خان باهادور

---

(١) عجبت لكسرى واتباعه غسل الوجوه ببول البقر
ابو العلاء المعري

يموت في الحديدة وتأكله العقبان وهو مرمي على شاطىء البحر . ولكن سيصلي من اجله المسلم والهندوسي والمسيحي . وكل واحد منهم يضع شيئاً في كيس صواب . الله كريم . الشركة الدينية لضمان الحيـــاة الابدية ، الله رئيسها يا مستر امين ...

كنا انا وفضل الدين نقضي ساعات في المساء على السطح تحت النجوم وحديثنا الحياة والاخرة وسر الوجود والخلود . وما احلاهـا ساعة أنستنا السياسات والمذاهب كلها . ان في شخصية فضل الدين الروحية والعقلية من الادب الشرقي ما هو مزيج من الاسلام والصوفية . بل في عقيدته الاسلامية شيء من الاسرار البوذية والغوامض الهندية ولا عجب اذا ظل هذا الاساس الهندي وهذا الظل الآري في عقيدة الهندي المسلم المستنير . كنت اشعر وهو يتكلم عما يفهمه بالاسـلام ، دين التوحيد ، اني مثله مسلم ، وكنا عندما نصل الى ذروة الوحدة الكلية نشعر بما حولها من الفيوضات الكونية الالهية فنتأكد اننـا واحد في الشك وفي اليقين .

— أتعتقد يا فضل الدين بتكرار التجسد ؟

— لا احب ان اعود الى هذا العالم وهذه الحياة . اما اذا كان في تلك النجوم حياة اخرى بشرية او روحية محضة فلا شك انها تكون اسمى من الحياة التي نحن فيها .

— يروعني التأمل بجدود الادراك في الانسان ، بل يمـــلأني حزناً وغماً . خذ العقل واركن اليه فيخونك في النور احياناً وفي الظلام . وراء ذاك الافق يهجرك او تحت هذه المياه . لكن أليس من المحزنات ان يضمحل هذا العقل بالرغم عن حدوده وشذوذه ؟ وهو الذي يقيس المسافات بين تلك الكواكب وبيننا ويعرف اجزاءها والوانها وسرعة

دورانها .

— لا يدهشني ذلك ولا يحزنني . في اضمحلال العقل على ما اظن تتحرر الروح . العقل للروح مثل السجن للجسد . واظن ان الحياة مجردة عن الهيولية ، الروح مجردة عن العقل البشري المحدود بل عن الادراك البشري الذي يدور على محوره لا يعرف غير الـ « انا » فيه ، هذه الروح خالدة وتحيا ما وراء الحدود التي تحزنك . واظن كذلك انها تكون مقرونة بادراك يوافق طبيعتها ، ويوازي قوتها ، فتكشف حقائق في الكون جديدة ، وتتغلب تدريجاً على العناصر المادية كلها ، وادواره البشرية والروحية جميعها . نعم يا عزيزي الريحاني ان العقل في الحياة سجن الروح . وكثيراً ما اشعر بظلمه واتألم من قيوده .

— وما برهانك ان الروح تحيا حياة مستقلة مجردة خالدة بالرغم عن انفصالها عن العقل الذي تدعوه سجناً ؟

— انها تحيا بسبب هذا الانفصال وليس بالرغم عنه . برهاني ؟ لا برهان عندي غير تلك الانوار انوار النجوم والكواكب . ان فيها ، في اشعتها وفي فلكها عقلاً يديرها ، وقد يكون ذلك العقل مكوناً من ارواح من تقدمنا من الناس . وهي منفصلة كلها من روح الله ومتصلة بها ، منفصلة في الفردية متصلة في الجوهر الكلي . قد تكون تلك الارواح كنه الجاذبية في الافلاك .

— ارواحنا اذن تحوم حول تلك الانوار كالفراشة ولا تحترق ؟

— فراشة النفس ، نعم ، وهي من نور ، فتجذبها نار الحب نار الالوهية اليها ولا تحرقها . وعلى ذكر الفراشة ، قرأت مرة قصة

حكيم صيني حلم في نومه انه فراشة في بستان الحبور تتنقل من زهرة زكية الى اخرى . وعندمــا استفاق حزن لمــا شاهد من حقيقة حاله فسأل نفسه حائراً بائراً : هل انا رجل يحلم بانه فراشة ام فراشة تحلم بانها رجل ؟

— جميل ، جميل . ومن يزيل الحيرة من قلب الحكيم ؟ يخيل اليّ يا فضل الدين اننا في هذا العالم رموز زائلة لحقائق خالدة وكل حقيقة تتكون تكوّناً روحياً جديداً كلما طوي رمزها . وفي كل تكوّن تزداد انتشاراً وقوة رحباً . فيكون رمزها في هذا العالم شبيهاً بها ، ممثلاً لها ، عظيماً في الناس . ويستمر هذا الطي والنشر ، هذا التجسد في الرمز والنمو في الحقيقـة ، الى ان تجتمع ، بالفيض الاولي ، الفيض الالهي البـاهر . فيكون في ذلك أوج مجدها ، النهاية في اللانهاية ، ويكون آخر التجسدات لرمزها المادي البشري . هذا ما تراه عين البداهة في التجسد والخلود ، وهذا ما افهمه بجمع الجمع في اصطلاح الصوفي .

— ولكن عقلك لا يثبت ذلك . العقل عدو البصيرة . العقل — اعود الى ما قلت — سجن الروح .

— وما دمنا في السجن لا ارى اصلح من البصيرة غذاءً وهواء . وفي البصـيرة كذلك شيءٌ من الخيـال هو خير التعزية اذا نكب البرهان .

— وما الفرق بين الخيال والاوهام الدينية ؟

— الفرق بين اعتقادك بالخلود واعتقاد الخادم العبد بالجنة .

— وهل تسميها جنة العبيد — عبيد الاوهام ؟

— قد سماها احد مفكري العرب [1] بجنة البله .

— اني افضل ان اكون فراشة .

— فراشة من النور تجذبهـا اليهـا نار الالوهيـة ولا تحرقها ؟ اني اشاركك في التفضيل .

في صباح اليوم التالي اهداني صديقي كتاباً صغيراً ما عرفت من عنوانه شيئاً من اغراضه . ولكن مؤلفه السيد احمـــد بن ادريس مؤسس الحكم الادريسي في عسير هـو من اولئـك الروحيين الذين يرفعهم محمد فضل الدين الى مقـام ابن العربي وجـلال الدين الرومي . أمر عجيب يتلوه في تهامة أمر أعجب . كيف لا وهـذا الصوفي يؤسس فيها ملكاً عالميـــاً ، الطريقة فيـه أساس الحكم ، والحكم أساس الطريقة . ولكن الطرق تفسد التصوف فكيف بهـا في الاحكام ؟

لعمري ان اجمل الكمالات التي نتمناها محققة في الحياة هي تلك التي تقترن فيها روحية الصوفي الحقيقي بالاعمال السياسية والاجتماعية والادبية كلها . فتصفو مجاري العقل في مواردهـا ، وتدق خيوط النفس في منسوجها ، يقل الجشع والخداع والوهم في نواحي الحياة . ولكن التصوف اجتهاد شخصي ، ونعمـة فردية ، لا تورّث ولا تعلّم ولا تُنشر بالاجازات . ومن الاسف انه لا يبقي منهـا ، بعد موت صاحبها ، غـير الطريقة او الحلقة وخزعبلاتهـــا ، والمشايخ وشعوذاتهم .

قال فضل الدين عندما اهداني الكتاب : الجهل المخيم في هذه البلاد يفسد اغراض هذا الرجل الكبير . تجيء المرأة اليّ وهي تشكو من

---

(١) ابو حامد الغزالي.

مرض او ألم فأعالجها فتشفى بفضل «الشيخ احمد» . يجيء البدوي وهو يصرخ من اوجاعه ويصيح . جرني يا شيخ احمد ، يا شيخ احمد لا تنسني ! يغيظني هذا الاشراك بل هذا الكفر . اكاد أجن منه . قلت مرة لأحد المرضى : رح الى الشيخ احمد يداويك . ورفضت مرة ان اعالج امرأة حتى انتقلت في استغاثتها من الشيخ احمد الى النبي . فصحت بها : لا احمد ولا محمد يا كافرة . استغيثي بالله : اتكلي على الله وحده . .
اما حلقة الذكر فسنشاهدها في الحديدة .

وكان قد توفي فيها يومئذٍ شيخ الطريقة المرغنية [1] فاشتركت الطرق كلها في حلقة ذكر من اجله ضمت اربعمئة من المصلين واستمرت خمس ساعات . صحبني تلك الليلة الى مسجد الشجرة خارج المدينة مدير الشرطة وكاتب العامل وأحد اصحاب فضل الدين . فجلسنا في منصة في صحن المسجد ، اشرفنا منها على الحلقة كلها . وكان الناس جالسين على الحصر في الايوان وعلى الارض في الفلاة ، ووقف في الابواب وحول الجدران جمع من المتفرجين ، وجلس في الصدر في حلقة خاصة ابناء الشيخ المتوفّى ومشايخ الطرق الاخرى ، ووسطهم سراج منير وقارىء كان يقرأ ساعة وصولنا المناقب التي تفتتح بها حلقات الذكر .

ان المناقب شبيهة بسير القديسين في الكنيسة الكاثوليكية ، فهم يعددون فيها فضائل الفقيد ، فيجيئون بنبذة من سيرة حياته ، ويذكرون بعض كراماته . استمرت مناقب الشيخ المرغني ساعة ، وعندما وقف القارىء الوقفة الاخيرة فيها هتف المصلون : آمين . ثم

(١) الطريقة المرغنية لاحمد المرغني الذي اخذها عن احمد بن ادريس ، منتشرة في عسير وعدن والسودان.

ارتفع صوت شجي ينشد قصيدة يرثي فيهـا الفقيد الابر فكانت مثل المناقب طويلة ، وما كنت وحدي متضجراً . قال مدير الشرطة وهو يمسح العرق عن جبينه : طويلة ، والله طويلة . الشيخ يحتاج الى الصلاة لا الى الاشعار .

ولكن الشعراء لا يملون اسماع قوافيهم . هوذا آخر لا حسنة حتى في صوته . ولا حق جعلنا نترحم على السابق . ثم هتفنا مع المصلين : آمين ، آمين . وكان الحرّ شديداً ، والهواء ساكتاً عنيداً ، لا يحرك منه لساناً ، فينعش قوانا ، والرطوبة اثقل ما فيه ، واللزوجة افجع قوافيه . فاستجرنا منه بروح الشيخ الطاهرة ، ورفعنا الادعية والطلبات الى سدتها الجليلة الباهرة : يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كليمة ابي حنيفة ، يا مسكتة الشعراء ، ومنطقة الاولياء ، يا مسكّنة النهقات ، ومحرّكة الحلقات ، اسمعينا ، ارحمينا ، آمين .

استجيبت في الحال طلبتنا ، فوقفت الحلقة اربعة صفوف الواحد وراء الآخر ، ووقف الشيخ احد ابناء الفقيد في وسطها فحركها باسم الله . بدأ بصوت هادىء واشارة لطيفة ، بدأ بـ « لا إله الا الله » . فمالت الحلقات الى الامام ، ومالت الى الوراء ، وراحت تكررهـا وتردد الشهادة . وكان صوت الاربعمئة مصلياً ، وكأنه صوت واحد ، وحركة الاربعمئة مجلياً ، وكأنها حركة واحدة ، يتدرجان سرعة وهياجـاً عملاً بلهجة الشيخ وباشارة يمنـاه ، وهو يجول في الحلقـة مستحثاً محرضاً .

الا الله ! وضرب كفاً على كف فرددت الحلقة : الا الله ! بسرعة لمح البصر ثم امست كأنها تصيح : لله لله لله ، وسكتت فجأة كمن أغمي عليه . ثم عادت تدريجاً الى الميزان الاول في الصوت والحركة :

لا إله الا الله . وجلس الشيخ . فقام آخر يثب وثباً ويقول : حيُّمْ قيم [1] . شرعنا نتقدم هياجاً . دخلنا في دور الزبد والرغاء . حيُّمْ قيُّمْ ! وتحركت الحلقة حركة سريعة شديدة كأنها تدق رأسها في الارض ثم نطحـاً في الجو ، واستمرت في حيُّمْ قيُّمْ نصف ساعة والشيخ يثب وسطها ويحلج ، وصفق كفاً على كف كل مرة ينقلها من درجة في السرعة الى اخرى . وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعاً من فاز بنعمة في « الحال » .

ثم نهض فتى لا يتجاوز الثانية عشر سناً ، هو اصغر اولاد الفقيد ، فبدأ حيث انتهى اخوه . وكان يتلوى كالسكران ، ويرقص تارة ويثب طوراً كالمجنون . مثّل الفتى دوره تمثيلًا ادهش حتى الذين ألفوا الحلقات ومدهشاتها واضحكهم كذلك . كهرب الفتى الحلقة . اضرم فيها النار . قبض على ما تبقى من رشدها ورماه خارجاً . صاح بها فرددت الصيحات وصرنا لا نفهم ما يراد . الا انها اشبه بالانين . كأن الاربعمئة رجل اصيبوا بألم شديد فأنوا أنة واحدة . وبدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد . هوذا عبد امسى جماداً ، فرفعه اثنان فوق رؤوسهم واخرجوه . وذاك وقـد خرج من الحلقة فراح يدق رأسه بالحائط فسقط صريعاً مغمى عليه . وهاك من يبغي الاجتماع بالله بواسطة عمود من اعمدة المسجد فامسكه رفيقاه فتفلت منهما وضربهما، ووثب وثبة هائلة كان العمود ورأسه خاتمتها المفجعة . حملوه مضرجاً بدمه الى خارج المسجد .

بدأت تظهر كرامات الشيخ . سقط امام الفتى الزعيم في وسط الحلقة شيخ لحيته بيضاء طويلة والزبد يسيل عليها من فمه ، فوثب فوقه

(١) اي الحي القيوم .

ولم يأبه له . وهذا آخر يخلع ثيابه .

« خلعت عذاري واعتذاوي لابس الـ
خلاعـــة مسروراً بخلعي وخلعتي »

رمى بعمامته وبجبته وبدثاره الى الارض . فاوقفوه عند هذا الحد واخرجوه في شعاره من الحضرة الروحانية . استجرنا من ذا المشهد بروح الشيخ الطـــاهرة : يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كليمة ابي حنيفة ، يا مسكنة العباد ، ومنطقة الجماد ، يا ربة الحال ، وسراج الترحال ، قفي ، والطفي ، لا تقتلينا بالكرامات ، ولا تسكرينا بالشعوذات ، ولا تؤاخذي شيوخ الطرق والحلقات ، آمين ، آمين .

## احمد بن ادريس والتصوف

قطبا الصوفية في العالم الاسلامي—مولد السيد احمد — يدرس ويدّرس في فاس — اجتماعه بالشيخ عبد الوهاب التازي— العلم بالغيب وما يدعى عند الافرنج Clairvoyance — اجتماع التازي بالشيخ عبد العزيز الدباغ — اجتماع الدباغ بالخضر ابي العباس — الطريقة الاحمدية — « امرنا كله جد . من ُيعط الجد ُيعطِ الجد » — السيد احمـــد في مكة — رحلته في تهامة — انتشار الدعوة — وفاته في صبيا — تلميذ الشيخ ابراهيم الرشيد — الطريقة الرشيدية وترهاتها —آيات صوفية — فلسفة الزهد والفقر — الامام علي وقطب الجان القفائي — المجيدري يأخذ عن قطب الجان والسيد احمد عن المجيدري — محامد وصلوات ونقمات — استعارات صوفية — السالكون والمشعوذون .

كتبت عند وصولي الى الحديدة كتاباً الى السيد محمد امام صَبيا وجيزان استأذنه بزيارته ، وبت انتظر الجواب . وانتظر كذلك سيارة استشرقت في الشرق فصارت تعمل يوماً في الاسبوع وتعيّـــد ستة ايام فعيدت معها وكان سروري مزدوجاً لاني اجتمعت ايام العيد بقطب دائرة التقديس ، السيد احمد بن ادريس ، كبير بيت الادارسة ومؤسس ملكهم في عسير . وفزت بطرفة من ترجمة حيـاته ، وبنفحة من قدسياته ، فجئت امتع القارىء بهـــا عله اذا كان مادياً يستفيد ، واذا كان روحياً يستزيد .

ان في العالم الاسلامي قطبين للصوفية وموردين هما ايران وبلاد المغرب . والسيد احمد ، نور من انوار الثاني . فقـد كان شروقه عكس الكواكب من الغرب وغروبه الظـاهري في الشرق في بلاد العرب . وُلد في بلدة العرائش على ساحل البحر من اعمـــال فاس في

السنة الثانية والسبعين والمئة بعد الالف ( ١٧٥٨ م ) وهو شريف حسني من السادات الادارسة المشهورين في بلاد المغرب . درس العلوم في مدينة فاس ثم شرع يعلم هناك في « ما شاء الله » اي في المواضيع التي شاءت العزة السرمدية تلقينه اياها بالوسائط وبدونها .

كان السيد احمد وهو في الدور الاول من استشراقه على الاسرار الالهية والكونية يكثر الترداد على المشايخ العارفين الابرار الذين اصبح قطبهم بعدئذ في العلوم والسلوك .

اما الشيخ عبد الوهاب التازي الذي كان يحضر دروس السيد احمد في فاس فقد صار بعدئذ شيخه الاكبر ونور طريقه الانور . ولا اهمية للسن في الموحيات ولا للشيخوخة في الربانيات . فمن جمال هذه الارواح القدسية وكمالاتها ان المعلم الطالب الحقيقة لا يأنف ان يأخذها ، وهو شيخ طاعن في السن ، عن تلميذه بل عن احقر الناس واصغرهم لديه .

قد اجتمع السيد احمد بشيخه التازي بوساطة عالم من علماء شنقيط يدعى المُجَيِّدري ، وكانت في الاجتماع الاول فاتحة الالطاف والاشراف . ولا عجب اذا كان الصوفي يهتم لكل حادث في حياته يفتح له باباً او يشير الى باب من ابواب الحقيقة الكلية الازلية . اني اتصور المُجَيْدري يقول للتازي : هذا الشاب الادريسي مجد مجتهد ، وهو على سنه طويل الباع في اسرار الكتاب والسنة . فيقول التازي : قد علمت بذلك قبلك . سمعته في بادىء امره يدرّس فقلت في نفسي : لا بد ان يشرق على كلماته نور الاذن الرباني . وها دنت الساعة يا مجيدري ، ايتني به فاجمعه برسول الله .

وكذلك كان . ذهب السيد احمد مع المجيدري الى الشيخ

عبد الوهاب واحس من اول لحظة ان ها هنا الباب الاول، هاهنا سراج الطريق . فلازمه وانقطع اليه بكليته . وقد كان للتازي في ساعات الحال نظرات تخترق استرة الغيب فيرى ما لا يُرى ويشعر بما يحدث بعيداً عنه على الطريقة التي يدعوها العلماء بالكشف (١) . منها انه عرف وهو في فاس بموت المجيدري ساعة وفاته في شنقيط . وقد علل الشيخ التازي للسيد احمد هذا العلم بالغيب تعليلًا لطيفاً جديراً بالذكر ان المربي او الوساطة الاولى بين النفس والمصادر الروحانية اذا اتجه في ساعات الحال الى احد تلاميذه يراه بعين الغيب ويراه ما دام حيا في حالات شتى ، « تارة انور وتارة اظلم بحسب سلوكه وطاعته ، وتارة اقرب الى الله وتارة ابعد » . اما اذا رآه على حال واحدة في المكان الذي يعهده فيه فيستنتج من ذلك انه مات . أفلا ينطبق هذا الكلام اللطيف على الانسان اطلاقاً ؟ هو ما دام حياً متقلب ، او بالحري يتنازعه دائماً عاملان ، عامل الخير فيقربه من الله وعامل الشر فيبعده عنه . ولا يوحد العاملين او يزيلهما الا الموت .

والشيخ التازي على كرامته لم يكن للسيد احمد غير الوساطة الاولى . اما الثانية وهي بشرية كذلك ، فتجمعه بالخضر ابي العباس . الا انه قبل ان نصل الى الخضر لا بد من الدخول في الباب الثاني اي شيخ الشيخ التازي . نعم قد كان للتازي كذلك شيخ هو عبد العزيز بن مسعود الدباغ من فاس . وما كان لعبد العزيز من الحياة الدنيا غير ست وثلاثين سنة لزمه التازي مدة سبع عشرة سنة منها .

قد اخبرتك كيف اجتمع الادريسي بالتازي ، فاخبرك الآن

(١) Clairvoyance

كيف اهتدى التازي بالشيخ الشاب عبد العزيز الدباغ . يظهر ان شيخ سيدي احمد كان تاجراً اول امره ، او انه كان يتجر في بعض الاحايين ارتزاقاً . فمرّ يوماً بالدباغ وهو يريد ان يتجر في الحنطة فدنا الدباغ منه وهمس في اذنه : لا تتجر في الحب واتجر في السمن . اشتره من يوم كذا وبعه في يوم كذا ولا تبقه بعده . فعمل التازي بما قال فربح ربحاً كثيراً . فجاء اليه شاكراً . فقال الدباغ : ليس المقصود هذا ، وانما المقصود ان تتجر تجارة لن تبور ابداً . فقال التازي : كيف ذلك ؟ فاجاب الدباغ : اخرج مما ملكت يدك فتصدق به . فعمل بامره ولزمه منذ ذلك الحين واطلع على اسرار في العلوم والتفسير تلقنها بوساطته من الخضر ابي العباس. وقد عاش التازي ستين سنة بعد وفاة شيخه الدباغ وكان هو وتلميذه الادريسي يزوران ضريحه وينشدان هناك الاشعار .

لقد نبتت في القلب منكم محبة    كما نبتت في الراحتين الاصابع

....

تعشقتكم طفلًا ولم ادر ما الهوى

فشاب عذاري والهوى فيكم طفل

من كرامات التازي انه غاب عن بلده مرة يذكر اخوانه في الله فمات ولده فأخبر بذلك ، فارسل الى اهله يقول : لا تدفنوه حتى احضر . فحضر بعد ثلاثة ايام فخاطب ابنه قائلًا : من قال لك تموت؟ قم باذن الله . فقام الولد حياً . ان كاتب الترجمة التي اعتمد عليها يذكر هذه الكرامة كأنها حادث عادي مألوف . واني ناقل الخبر حباً بنشر ما اظنه ظلًا إلهياً لحقيقة كلية لا بد في مستقبل الانسان

والايمان ان تصبح قوة من القوى البشرية العـــامة يستخدمها صاحبها لخير الناس . يستخدمها في الشفاء من الامراض على الاقل . فاذا مرض احد في بيتك تقول له : من قال لك تمرض . اشف باذن الله تعـــالى فيشفى في الحال . وكان التازي يهذر احياناً بين اصحابه امتحاناً لهم ، فيقول مثـــلاً : وددنا لو جاءنا احد بثمر من القوقاس ، او بعنب من البحر . فيقول بعض اصحابه : كبر سن الشيخ . ولكن السيد احمد ، وقد كان اطوع له من بنانه ، كان ينهض فيتهيأ ويتزود للسفر ويجيء الى شيخه فيقبل يده مودعاً ويقول : سأجيء لـك بعنب من البحر . فيقول له التازي سراً في اذنه : يا احمد أمرنا كله جد ، من يُعطِ الجد يُعط الجد .

ما اكبرها وما اجملها كلمة . اخذها السيد احمد عن شيخه التازي وجاء بها الى مصر . من يُعطِ الجد يعط الجد . كان يومئـذ في العقد الرابع من العمر ، فاقام في ارض الكنانة قليـــلاً ثم سافر الى مكة فاقام فيهـــا ثلاثين سنة يجادل ويناقش العلماء ، ويشرح ويعلم العلوم الروحية . وكان يقول دائماً ، لكل نبي دعوة مجابة ، ولكل ولي عند نبيه طلبة مقبولة . هذه هي نقطة الخـــلاف بين السالكين من سنيين وشيعيين واهل التوحيد الوهابيين الذين كانوا قد استولوا في ذاك الحين على الحرمين .

اما اذا قبلت قاعدة السيد احمـــد فينبغي لك ان تقبل كذلك نتائجها . فتقول ، والمنطق اساس المعقول : ولكل شيخ طريقة عند وليه طلبة مقبولة ، ولكل سالك عند شيخه شفاعة ، ولكل امرىء عند السالك مثلهـــا الخ . هذا نظام في العقيدة والايمان يفسد غالباً الغرض السامي منهما . قد رأينا مثالاً منـــه في حلقة الذكر . وهناك

امثلة اخرى عديدة في من يلجأون الى الاولياء والى المشايخ ، بل الى الاشجار والاحجار عند ضريح من كان من الابرار . ليس المقام مقام جدال في الدين وتفضيل بين السالكين والموحدين . ولكني اقول ان السالك الحقيقي يصل في نهاية امره — اللهم اذا كان مجداً مخلصاً — الى اسمى درجات التوحيد .

هذا السيد احمد بن ادريس الذي لم ينقطع قط عن صحبة المشايخ العلماء يأخذ عنهم وعن المتقدمين من السالكين حتى قيل له من الحضرة الالهية : لم يبق على وجه الارض احد تنتفع منه الا القرآن. فقضى بعد ذلك سنين عديدة لا يشتغل بغير الكتاب ودرس حقائق معانيه . . واظن انه قال اثناء ذلك كلمته المأثورة : طريقي سُسم السعادة . ثم تدرج منها الى كلمة اكبر واجمل . طريقتي ما فيها كون [1] القدم الاول ها هنا والثاني عند الله . هوذا الصوفي في اسمى درجات التوحيد .

قد تدرج السيد احمد في الوسائط كذلك . فقد كان بينه وبين النبي كما تبين وساطتان بشريتان هما التازي والدباغ وثالثة روحية هي الخضر ابو العباس . والخضر الذي كان يجتمع بالنبي في حياته هو الوساطة بينه (ص) وبين الدباغ عبد العزيز الذي كان يجتمع به ويأخذ عنه في اليقظة وفي المنام . وكذلك السيد احمـــد ، فقد استغنى رويداً رويداً عن الوسائط كلها ، كما استغنى بالقرآن عن العلماء اجمعين ، وصار في آخر امره—ويصح ان نقول في بداءته — يجتمع بالنبي مباشرة مثل الدباغ في اليقظة وفي المنام .

قال السيد احمد : اجتمعت بالنبي اجتماعاً صورياً ومعه الخضر فأمره

(١) يريد بالكون الوجود بعد العدم والعدم بعد الوجود . اي لا عدم في طريقته سابقاً ولاحقاً .

النبي ان يلقنني اوراد الطريقة الشاذلية [1] فتلقنتها بحضرته ( ص ) ثم لقنني بأمر من النبي ايضاً سائر الاذكار والصلوات. ثم رفع النبي السيد احمد الى مقام الخضر وصار يكلمه بدون وساطة : يا احمد قد اعطيتك مفاتيح السموات والارض وهي التهليل المخصوص [2] والصلاة العظيمية [3] والاستغفار الكبير [4] . المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والآخرة . وقد قال له بخصوص الاستغفار الكبير : خزنتها لك يا احمد ما سبقك اليها احد . علمها اصحابك ليسبقوا بها الاوائل .

لعمري ان من يتجه بكل قواه العقلية والقلبية والروحية الى كتاب او الى امر او الى عقيدة او الى طريقة صوفية كانت او تجارية يرى منها ومن نفسه العجب . فكيف لا يجتمع بالنبي من قضى ستين سنة يفكر

---

( ١ ) قد سمى السيد احمد طريقته احمدية نسبة الى اسمه وهي تدعى كذلك في تهامة وعسير . اما عنوانها فعنوان الطريقة الشاذلية لان اتباعها يسلكون بالتهليل والادعية مسلك الشاذليين . وقد كانت طريقة التازي شاذلية ناصرية تتصل بوساطة شيوخ بني ناصر في المغرب بالشاذلي . وطريقة بني ناصر هي في نظر العارفين اشرف الطرق الشاذلية هناك ولا يسمون بها الا العلماء .

( ٢ ) اي لا إله الا الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

( ٣ ) منها : اللهم اني اسألك ... ان تصلي على مولانا محمد ذي القدر العظيم ... صلاة دائمة بدوام الله العظيم ، واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً ، يقظة ومناماً ، واجعله يا رب روحاً لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الاخرة يا عظيم – كتاب الاحزاب والاوراد .

( ٤ ) منه : استغفر الله العظيم .. واتوب اليه من جميع المعاصي كلها والذنوب والآثام.. من الذنب الذي اعلم ومن الذي لا اعلم عددها ما احاط به العلم واحصاه الكتاب وخطه القلم ..، كما ينبغي لجمال وجه ربنا وجماله . كتاب الاحزاب والاوراد .

بالنبي ، ويقرأ ويزدد كلمات النبي ، ويتوسل « بالصلاة العظيمية » الى النبي في اليقظة وفي المنام ؟ ان صورة اصورها في قلبي كل يوم لتنعكس امامي من حين الى حين فأراها بالعين المجردة كما أراها بعين الروح ، وان شئت فقل بعين الخيال ، يقظة ومناماً . فضلاً عن ان السيد احمد الذي ابتدأ بالتازي معلماً وانتهى بمحمد اصبح والنبي شيخه الاكبر ونوره الانور . وهو اي السيد احمد القائل الاستفادة من شيخك اكثرها يكون بالتوجيه القلبي . اسأله بقلبك فيجيبك بقلبه . هوذا الصوفي الحقيقي يتكلم . وهذه فيه صورة من صور الجمع العديدة.

اما من وجهة علمية عرفية فقد كان السيد احمد سيد العارفين وقطب المحققين ، جامعاً بين علمي الظاهر والباطن . وله فيهما الباع الطويل على الاخص في علمي القرآن والحديث « رواية ودراية » كما يقول صاحب الترجمة « وكشفاً وتحقيقاً » وهو يريد بذلك المعقول والمنقول ، الحقائق الوضعية والتقاليد ، ما رُوي منها وما ادركته البداهة واقره العقل . واني ازيدك من كلام كاتب الترجمة ما لا غلو فيه ولا مبالغة « قد خصّه الله بالمواهب المحمدية والعلوم اللدنية [1] والاجتماعية الصورية » . كل هذا صحيح شريف . واشرف ما فيه تخلقه باخلاق النبي او ببعضها .

على ان هناك امراً يختص بعلوم السيد احمد قد يُظن في ظاهره الشعوذة التي أجله عنها . ولكنه استحال عليّ فهم السر في يده . فقد كانت كما قيل لوح العلم المكنون ، ينظر اليها فيرى ويسمع ما وراء

---

(١) العلوم اللدنية التي هي من لدنه تعالى اما رأساً بالوحي وبالبداهة واما بوساطة بشرية او روحية .

المحسوس والمظنون . بل كان اذا سئل عن شيء في القرآن ينظر الى باطن كفه ثم يشرع يفسر بما شاء من العلوم الدينية واذا سئل عن حديث شريف ينظر الى ظاهر كفه ثم يتكلم بما يبهر العقول . فما الصلة يا ترى بين كفه وتلك العلوم والاسرار ؟حبذا لو اذن الشيخ السنوسي بشرح « احزابه واوراده » . فقد يكون تمكن من اماطة النقاب عن هذا السر في طريقة السيد احمد وفي يده . ولكنه لم يأذن للسنوسي بشرح الاحزاب خوفاً من ان تفسدها الشروح . فقد قال له : لا تخربها يا ولد السنوسي ، انما شرحها في جنة عدن .

اما السيد احمد السنوسي الذي اجتمع عندما جاء مكة للحج بالسيد احمد الادريسي فهو من علماء المغرب الكبار . وقد اعجب جداً بالسيد احمد ولزمه مدة اقامته في مكة ، فاخذ عنه واذعن له الاذعان التام . لذلك ترى الطريقة السنوسية في كفرة اليوم جامعة بين الادريسية والشاذلية . ولكنها تدعى محمدية لاتصالها بوساطة الادريسي فالتازي فالدباغ فالخضر بالنبي . وقد عادت الى المغرب بوساطة السنوسي ، وسارت الى افريقيا بوساطة محمد المجذوبي السواكني ، احد اولياء السودان « الشهير في وقته بين الخلائق ، بالكشف الصادق ، والكرامات الخوارق » . فقد صحب السيد احمد مدة طويلة واخذ الطريق عنه .

ثم اتجه القلب الى اليمين ، فبعث الله منها احد السادة ، جاء مثل السنوسي للحج . وليس خيراً من مكة لمن يروم الصيد ، صيد القلوب ، التي تحوم كلها هناك . جاء السيد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل مفتي زبيد في عصره فالفى فيها السيد احمد « كالعافية للسقيم وكالشفاء للجرح الاليم » ولما عاد الى وطنه حدّث في زبيد عن شيخه الادريسي وأثنى عليه كثيراً . ثم كتب ترجمته في كتاب دعاه « النفس اليماني والروح

الريحاني » وبينما هو وبعض العلماء يوماً في ذكر كراماته – بذكر الصالحين تتنزل الرحمات – هزهم الشوق اليه ، ومثلهم الوجد بين يديه ، فقال السيد الاهدل : هـذه ساعة الاجابة ان شاء الله . ارفعوا ايديكم بالدعاء ان يأتي الله به الينا . فلما تم المجلس قال : أرخو اليـوم وهذه الساعة . وكان في مكة يومئـذ ان حرك الله داعي السفر في قلب السيد احمد ثم أمر به فخرج يبغي مريديه يوم هاجم الشوق اليه . وعندما وصل الى تهامة كان اول نزوله في زبيد عند السيد الاهدل عبد الرحمن .

جاء الادريسي اليمن مبشراً بعقيدته ، داعياً الى طريقته، ناشراً ما منحه الله من اسرار الكتاب والسنة . وكان حيثما نزل محترماً مبجلاً ، فنظمت في مدحه القصائد وتبارى في ذي الحلبة شعراء زبيد وبيت الفقيه وتعز ووصاب ، وتهافت عليه الناس خاصة وعامة يستنيرون بمشكاته وينتفعون ببركاته . بل كان العلماء والمشايخ له سامعين، وعنه آخذين ، وكانت زبيد نقطة دائرة آماله . اقام اول مرة فيهـا عشرين يوماً ، وعاد بعد ان طاف في تهامة اليها، فاقام فيها بضعة اشهر، فاخذ الناس يتسابقون الى اقتبال دعوته ونشر طريقته ، التي أجازهـا للسيد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل هو واولاده اجازة عامة «في جميع العلوم المقربة من الله تعالى » . ولا تزال زعامتها في بيت الاهدال الى اليوم .

مما يحزن في اخبار رحلة السيد في اليمن ان تلك البـلاد كانت منذ مئة سنة ارقى مما هي اليوم . فقد كان اهلها متيقظين، وفي العلم راغبين. فكان الشعراء والعلماء يومئذ في المدن والقرى ، واليـوم لا تجد في تهامة كلها شاعراً واحداً ينظم باللغة الفصحى . أنلوم الترك الذين حكموا بعدئذ البلاد ، ام نلوم التصوف الذي ينفع الفرد ولا ينفع عامة الناس.

اني متيقن ان لا تصوف في الجماعات ، وقد استحال عندهم طرقاً وحلقات .

عاد السيد احمد شمالاً في رحلته فزار الحديدة ومُراوَغه وباجل ثم صبيا البلدة المشهورة القريبة من ابي عريش ، فاستقر فيها واستوطنها ، فكانت هناك خاتمة الرسالة الصوفيه ، وفاتحة الطريقة الاحمدية .

شرفت صبيا بكم فغدت موردا للعلم والنزل
ليت شعري ما الذي فعلت فعلت قدراً على زحل

ان آخر من اخذ عنه اثناء اقامته هناك هو الشيخ ابراهيم الرشيد صاحب الطريقة الرشيدية . فقد صحبه في صبيا مدة السبع السنوات الاخيرة من حياته فاغتنم فيوض بركاته حتى النفحة الاخيرة منها التي فاضت من نفس السيد احمد ورأسه الشريف على ركبة تلميذه ، وذلك في تسعة بقين من رجب هي السنة الثالثة والخمسين والمئتين والف (١٨٣٧ م) .

قد قيل ان الرشيد كان اقرب الناس الى شيخ صبيا ووليها ، وارسخهم قدماً في علومه واسراره . ولكننا سمعنا وشاهدنا في طريقته ما ينفي ذلك . حلقة حضرناها في عدن فيها ولدان ينغمون ، ورجال يطيبون ويتصابون ، وصفوف من الحسن والشوق تميل بعضها الى بعض ، وعيون ترنو الى القمر في السماء ثم الى الاقمار امامها ، وشيخ الحلقة جالس على منصة يراقب منها العمل بل التمثيل . انه في تعليم الولدان لاستاذ بارع يعلمهم الغناء والحداء والسجود ، فيستصبي في اذكارهم الجمود ، ويغرس في الحلقة سر الوجود — خاتمة المحامد والورود . ان مثل هذا التطور في التصوف ليحزن جداً . واني أجل السيد احمد عما يجري باسمه اليوم في تهامة وعسير وفي السودان ، واعتصم بروحه

الشريفة الطاهرة منها .

حققني يا إلهي بانسانيتي حتى اكون **انسان العين الكلية الالهية** التي لا يحصرها شيء ولا يقدر قدرها سواك .

واسمعني غاية لذيذ خطابك ومحادثتك في كل حال من احوالي بجميع كلياتي حتى لا تخلو ذرة من ذرات اجزاء ذاتي من ذاك السماع الالهي لحظة ولا اقل من ذلك .

واجعلني يا إلهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة **لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك** .

وتجلَّ لي يا إلهي بمقام الاستواء الجامع للمراتب الخفية الالهية كلها **حتى اعطي كل مرتبة الهية** حقها في نفسي .

وتجلَّ لي يا إلهي بسر توحيد الذات المطلسم في آية الانانية المرسومة : انا الله لا إله الا انا فاعبدني .

**وتجل لي يا الهي** يا ذا الجلال والاكرام فاجد لذة الوحي الالهي مني الي دائماً ابداً سرمداً . . . منزهة ان يلحق بهـــا او تقرب منها لذة في جميع الوجود بحيث لو وضع منها قدر رأس شعرة على جميع العالم لهام بعضه ببعض ، من غير ان تفارقني تلك اللذة لحظة ولا اقل منها **حتى اكون حقاً الهياً في نفسي**[1] .

من اين للعامة الذين يصيحون في الحلقات ويرقصون ان يدركوا مثل هذه الروحيات ، ويتذوقوا مثل هـذه الالهيات ؟ بل من اين لمشايخ الطرق والسادات المتصوفين ان يتفهموا معـــاني شيخهم الاكبر في « الاستـواء الجامـع لمراتب الحقيقة الالهيـــة » وفي « آية الانانيـة الموسوية » و « بسر توحيـد الذات » و « بانسان

(١) كتاب الاحزاب والاوراد .

العين الكلية الالهية » ؟ انهم لو ادركوا مقدار ذرة من مقاصده ومعانيه في هذه الحقائق والتشوقات لفروا من الحلقات هاربين ، وراحوا افراداً ساكتين قانتين سالكين . ان بشراً يصبو الى قلب الالهيات بل الى ذروتها ويبتغي ان يكون انسان عين الله لتستوي عنده مراتب الحق كلها ، فيرى في كل مرتبة ، في كل دين ، في كل مذهب ، صلة الهية فيعطيها حقها من نفسه . ان مثل هذا البشر العظيم لينفع في حياته الناس ، لكنه قد يضر كثيراً في ما يقام له بعد موته من التكيات وما يسود باسمه من الجربزات .

اجل ، وقد يضر اشد الضرر بفلسفةٍ في الزهد والفقر تصلح للزاهدين ولا تصلح للامم والشعوب الا اذا عمتهم اجمعين . ولعمري انها حتى في كليتها وشمولها تخالف الناموس الطبيعي الذي جعل في العمل خلاصاً للانسان ونعمةً ويمناً . بعرق جبينك تأكل خبزك . انها لحقيقة اقتصادية والهية معاً . ولكني انا الكسلان اتفلسف في الزهد وقد اكون صادقاً في زهدي مقتدياً بالنبي القائل : لكل نبي حرفة وحرفتي الفقر والجهاد . وقد اكون كذلك فصيحاً بليغاً ، فاكتب رسالة « كيمياء اليقين » كما فعل سيدي الابر احمد بن ادريس ، فابرهن فيها ان طلب الرزق حرام ، واجيء بالشواهد الدينية ، والاحاديث النبوية ، والنوادر والملح اثبت ما اقول واستغوي به الناس ، فاظلم امة كاملة بحديث من الاحاديث النبوية : — لو ركب الانسان الريح وهرب من رزقه لركب الرزق البرق وادركه حتى يدخل فمه .

ما اجمله والطفه حديثاً ، وما اقرب الموت من حقيقته . قد ينجو بها امرؤ وتهلك بها امة جمعاء . اني اذا اخترت لنفسي الفقر والزهد

اخطىء اذا استخلصت منها قاعدة ليسلك بموجبها الناس او مثلاً يتمثلون به فكيف بي اذا قصصت تعزيزاً لطريقتي مثل هذه القصص اللطيفة . كان امرؤ يصلي في المسجد ويلزمه دائماً ليل نهار . فسأله الامام : من اين تأكل ؟ فقال له : من ملك السماوات . فقال : وهل يدلي لك بالقفة ؟ فاجاب نعم . فاخذه الامام الى بيته ودلاه في البئر وذهب الى السوق . وكانت امرأة الامام وخادمتها وامامهما اكلة طيبة همتا باكلها ، فطرق الباب طارق فخبأت الاكل في البئر . دلته بسلة فوقعت على الزاهد فتناولها واكل هنيئاً . دلى له الاكل ملك السماوات . اجل ، رزقك يتبعك كالظل . كنز المؤمن ربه . قد وعد الله العباد برزقهم والله صادق بوعده ... ان الاهتمام بالرزق اذن تكذيب لله . ها هنا قلب الجمود في ما التوى من الاسلام ، وموطن الضعف والخمول في معظم المسلمين .

ولكن في هذا الكتاب الصغير الكبير ، كتاب « الاحزاب والاوراد » ، غير رسالة « كيمياء اليقين » العجيبة التي يستوقف عنوانها المبتكر الانظار ، ويفكه فحواها الابرار والتجار ، ويساعد كذلك من يبغي في الصوفية والزهد مسلكاً صالحاً قوياً — ان فيه كذلك « الحزب السيفي » وقصته اغرب ما فيه .

قد عرّفتك تعريفاً سطحياً بالجيدري العالم الشنقيطي الذي جمع « سيدنا احمد بمولانا عبد الوهاب التازي » . وازيدك الآن به علماً . يظهر ان روحية الجيدري كانت مزدوجة اي مركبة من روحيتي الانس والجن . ويظهر انه كان يباري الدباغ بالاسفار في عالم الغيب يقظة ومناماً . فاجتمع هناك بكبير من كبار الجن الذي كان رفيقاً لسيدنا علي رضي الله عنه . من المعلوم في التاريخ ان علياً

حارب الجن وغلبهم ثم اصطحب بعض المؤمنين منهم في جهاده اخوانهم الكفار . ومن اولئك الصحابة قطب الجان القفائي الذي كان لعلي كالخضر ابي العباس للنبي . هو القفائي الشهير الذي اجتمع به المجيدري فلقنه « الحزب السيفي » عن الامام علي . ثم تلقاه السيد احمد عن المجيدري بروايته التامة وحرفه الواحد . اللهم افتح لنا .

ان الفرق بين هذا الحزب وغيره من الاحزاب يحملنا على تفضيل الخضر في الرواية والحديث . بل فيه ما يحط من قدر الانس والجن وساطة ولا يزيد الامام علياً والسيد الادريسي رفعة وفضلاً . فيه من مرادفات الادعية والمحامد ، والطلبات والاستغاثات ، مـــا تجده في غيره من الصلوات . وفيه من التسخط والغضب على الاعداء والاستغاثة بالله عليهم ما يروعك ويزعزع فيك لاول وهلة الايمان بالصالحين الابرار . ولكنك اذا تبصرت قليلاً يطمئن بالك وترى في دعوات السيد الساخط عين الصواب . خذني بحلمك في ما ستسمع . ان من يستحسن شيئاً ليرغب فيه . فلو كان السياسي او التاجر او الجندي او الكاهن او الطبيب او المحامي يدعو على اعدائه دعوات سيدي احمد لقلت : كفر بالله . ولكن المجنون بالحقيقة الكلية ، المجذوب اليها بجمعيته ، ومن صح ايمانه ، وصدق يقينه ، وكرمت اخلاقه ، وسمت اشواقه ، وتنزهت عن اللؤم والجشع والانانية والكبرياء والنفاق اعماله ، وكان مجاهداً في سبيل الفضائل الروحانية والخلقية كلها ، ان هذا الرجل يشتهي ان يطهر العالم والناس من اضدادها .

وان اعداء مثل هذا الرجل لاعداء الحقيقة والصدق والامانة والايمان والشرف وكرم الاخلاق . فيحق له ان يستجير منهم بالله

وان يسأله تعالى – وصاحب هذه الرحلة كذلك من المستجيرين السائلين – ان يباعد بينه وبينهم كما باعد بين المشرق والمغرب . وفوق ذلك ، نعم ، واكثر من ذلك : اخطف اللهم ابصارهم بنور قدسك ، واضرب رقابهم بجلال مجدك ، واقطع اعناقهم بسطوات قهرك ، واهلكهم ودمرهم تدميراً ، كما دفعت كيد الحساد عن انبيائك ، وضربت رقاب الجبابرة لاصفيائك ، وخطفت ابصار الاعداء عن اوليائك ، وقطعت اعناق الاكاسرة لاتقيائك واهلكت الفراعنة ودمرت الدجاجلة لخواصك المقربين وعبادك الصالحين ... اللهم بك نصول على الاعداء ، واياك نرجو ولاية الاحباء والاولياء والقرباء امين . (١)

هذا في كتاب الاحزاب ، ويتلوه من المحامد ما لا يضاهي ورعاً وانسانية ما جاء في اوله اخص منها المحمدة الثانية وهي جامعة مستوفية وجيزة بليغة . هي روح المحامد كلها .

الحمدلله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم اعلم .

ولكن السيد احمد بشر كريم صادق اللهجة في حالاته كلها فقد كانت له فترات من الحياة فيها الظلام اكثر من النور ، والبؤس اشد من الحبور ، فخرج لذلك من التعميم الى التخصيص ، ومن الحمد على ما لا يعلم الى الشكوى مما هو معلوم محسوس . اجل ، وقفَ مرة في « كنف الله وجواره » يعدد مثل ايوب الصديق المصائب والآفات والامراض والمفاسد كلها ، ولم ينس الفالج والباسور ، ولا استثنى

---

(١) كتاب الاحزاب والاوراد

وحشة القبور .

هذا ما في « الحزب السيفي » الذي تلقاه الادريسي عن المجيدري عن قطب الجان القفائي عن الامام الاكبر رضي الله عنهم اجمعين .

ولكنت وقفت ها هنا في التعريف لولا حاشية « لبعض الواجدين المحققين من اهل العمل » التي تذكرنا بالمتنطعين والمشعوذين . قال المذكور في كلامـــه عن حزب آخر (١) : ان المثابرة على الدعاء السيفي معه مؤثر للثروة والغنى ، وهو بدونه لا يخلو من الرجعة والفقر . اي انك اذا قرأت الحزب المغني وحده تفتقر واذا قرأت الحزبين تغتني . فما اشبه هذه الشروط بل هذه الرشوات في الاوراد والاحزاب بالغفرانات عند المسيحيين . انها والحق يقال لآفات التقوى وسيئات الصلوات .

اسألك اللهم بنور عظمة ذاتك الذي لا يحتمل ظهوره احد غيرك .

لولا لطفك بحجبك النورانية لاحترقت صور الكون كلها .

ان دون الله عزّ وجل سبعين حجاباً من نور وظلمة وما تسمع نفس شيئاً من حس تلك الحجب الا زهقت .

ما قرأت في الاستعارات الصوفية ، وما سمعت من انغامها ، وما شاهدت في صورها ، اجمل من « حس تلك الحجب » وقد حركتها النسام الربانية فهمست اسرارها همساً في الاكوان .

واسألك بسر ذاتك الذي اضمحلت فيه حقائق انبيائك

---

(١) الحزب المغني لسيدي اويس القرني. ولم يذكر شيئاً من مصادره الانسية او الروحية او الجنية .

والمراسلين وطاشت بجماله ألباب ملائكته الكروبيين ، وانعدمت فيه معارف أوليائك واصفيائك المقربين ، حتى تاه الكل في الكل ، وتحير الكل في الكل ... ان تخرجني من شهود كل شيء سواك ... فتتفجر ارض طبعي كلها عيوناً عشيقة ... هنا وهناك ... وراء الوراء بلا وراء ودون الدون بلا دون .

وهذه في نظري اجمل الازهار الروحية في روضة الصلوات الصوفية اذا فاز بها السالك المالك ، هنا وهنالك .

## الادراسة في عسير

الرسالة الروحية – الحكم في عسير ايام ابراهيم باشا المصري – انتشار الوهابية – ثورة الاهالي على الحكم المصري الحجازي – انتشار الطريقة الاحمدية – خروج المصريين من البلاد – حكم الشريف حسين – رجوع الاتراك سنة ١٨٤٩ – امام صنعاء والاساكل البحرية – الادارسة واشراف ابي عريش – زيارة الامام في صبيا – الادارسة في مصر والسودان – التزوج بالجواري العبيد – فساد الدم والملك – السيد محمد الكبير – اخلاقه – مصادر قوته – معاهدته مع الانكليز – احترابه واعداؤه – الترك والزيود – ما كسبه بعد الحرب – الصوفي والسياسي ومصدر القوة والضعف فيهما – علي بن محمد الادريسي – شجرة بيت ادريس ،

واجعلني يا الهي لك عبداً محضا عبودية خالصة
لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك .

احمد بن ادريس

ان الرجل الذي توفي سنة ١٨٣٧ م في صبيا . فكفّن بكفن التقديس وشيع الى القبر ولياً . لم يبغ السيادة على احد من الناس . ولم يحلم على ما اظن واعتقد بملك عالمي ادريسي . ولكن من ضريحه ، وقد امسى مقاماً ومزاراً ، ُمدت يد السيادة وهي تحمل رسالة طالما سمعها العرب : خصوصا البدو منهم ، واذعنوا لها . ولا غرو والدين عندهم اساس الملك في الدنيا ، والسبب الاول في خرابه لو انهم يفطنون . يموت الرجل الصالح الابر الذي لم يرغب في غير العبودية لله الخالصة ، المجردة من الربوبية على احد من خلق الله ، فيرفع الى مقام الاولياء ، ويؤخذ من ضريحه حجر الزاوية لملك عربي

جديد .

كانت تهامـــة وعسير يوم توفي السيد احمد بن ادريس في حكم مضطرب لا تركياً يعرف ولا مصرياً . ومع ان البلاد ، من القنفذة حتى المخا ، كانت في حوزة ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير الذي احتلها بجنوده سنة ١٨٢٦ م باسم الباب العالي . فالاهالي على الرغم من الاحدى عشرة حملة التي حملها عليهم من الطائف ومن البحر نافرين منه ثائرين عليه .

ومن اسباب ثورتهم على المصريين والحجازيين ان كثيرين منهم ، اقتداء بزعيمهم ابي نقطة ، انتحلوا المذهب الوهابي وكانوا من انصار الامير سعود الكبير الذي استولى على الاقطار العربية كلها . وقـد كان انتشار الوهابية في تهامة احد الاسباب في نجاح الطريقة الاحمدية. بالمقاومة التي تظهر القوى الكامنة في المذاهب وفي الجماعات . وقـــد فازت السيادة الروحية المغربية نهائياً على السيادة الوهابية . ولا سيما لان « توهيب » الناس يومئذٍ في تهامة لم يكن غالباً عن اعتقاد بل كرهاً للحكم الشريفي الذي كان يوماً تركياً ، ويوماً مصرياً ، ويوماً عربياً ، ودائماً حكماً ظالماً جائراً .

استمرت هذه الحال عشرين سنة . وعندمـــا قررت الدولة ان تسحب جنودها من تهامة وعسير سنة ١٨٤٠ م كان يطمع بالسيادة فيها ثلاثة من امراء العرب ، هم الشريف محمد بن عون في مكة الذي كان يساعد المصريين في حملاتهم على تلك البلاد ، والشريف حسين بن علي من اشراف ابي عريش الذين كانوا يحكمونها ، والامام الزيدي في صنعاء الذي كانت تهامة سابقا في حوزته وجزءاً من بـلاده . فاتفق محمد علي باشا يومئذ مـع اقدر الثلاثة وادهاهم وهو الشريف

حسين فسلمه زمام الحكم في تهامة ، على ان يدفع سنوياً الى الدولة قيمة من المال .

كان الشريف حسين في حكمه ظالماً . وفي سياسته مراوغاً مستبداً ، يطمع بالاستيلاء على اليمن كله وباخراج الانكليز من عدن . فنشبت بينه وبين امام صنعاء حرب استمرت بضع سنين تناوبته فيها الهزيمة والنصر ، فوقع مرة في يد الزيود اسيراً ، وبسط بعدئذ سيادته على اساكل تهامة كلها حتى المخا ، فأنّ من جوره ومظالمه الناس .

ثم عادت الدولة سنة ١٨٤٩ تحاول الاستيلاء على اليمن وعسير ، فنزلت جيوشها بقيادة توفيق باشا في الحديدة واسترجعت الحكم من الشريف حسين الذي عاد الى مقره في ابي عريش .

ومن غريب ما يعيده التاريخ من حوادثه ان امام صنعاء كان يحارب يومئذ ليسترجع الحديدة من الشريف حسين . وكان الانكليز يومئذ كما هم اليوم متذبذبين بين الاثنين اي بين حاكم الاساكل وحاكم الجبال .

نزل توفيق باشا في الحديدة ، وبسط شيئاً من حكمه في تهامة ، وتقدم بجيوشه الى صنعاء كما اسلفت القول في فصل سابق . وقد كان اليمن الاعلى اهم ما ينبغي في خطة الاستيلاء ، فعادت تهامة الى ما كانت فيه من الاضطراب لا يحكمها فعلاً الاتراك ولا اشراف ابي عريش ، فجاء ابن ادريس يشيد بين ظلال السيادتين المتداعيتين حكماً روحياً بل حكماً حقيقياً ، انتشرت كلمته وتعددت رسله شمالاً وجنوباً في البلاد .

جاء الناس من تهامة وعسير ومن اليمن يزورون المقام في صبيا ويتبركون . وكان السيد محمد بن الولي الجديد مقيماً هناك تتنازعه

عوامل الدنيا ونوافل الدين . ولكن المقام صار عرشاً ، وصار سيد المقام تدريجاً سيد الاقوام ، فسرت في مجاري القدسيات السياسة ، وشرع ابنـاء ادريس يناهضون سراً وعلناً اشراف ابي عريش حتى تغلبوا عليهم . ثم حاولوا بوساطة العشائر ، ابناء الطريقة الاحمديـــة الجديدة ، ان يتغلبوا على الأتراك فـــلم يفلحوا في بادىء الأمر . ولكنهم استمروا يستثمرون تلـــك السيادة الأرثية التي اصبحوا بسببها اثبت قدماً ، وابعد نفوذاً ، واوسع جاهاً من سائر اعدائهم في البلاد . وقد تجاوز ذاك الجاه عسيراً فوصل بالمهاجرة الى مصر وبلاد المغرب .

جاء ابن ادريس مهاجراً من الغرب ، وراح ابن ادريس مهاجراً من بلاد العرب . ولد للسيد محمد ولد دعاه عبد المتعال فلما شب سافر الى مصر وتزوج واقام هناك في قرية الزينية قرب الاقصر وولد للسيد عبد المتعال عدة اولاد سافر بعضهم الى المغرب فتزوجوا من بيت السنوسي هنالك واقاموا في القيروان . ان لهم كذلك بيوتاً في الزينية وفي ارجو بالسودان . اما في عسير فمنهم اليوم ثلاثة هم السيد مصطفى والسيد السنوسي والسيد العربي ابناء عبد المتعال . وقد حافظ هذا الفرع من بيت السيد الاكبر على مقامهم وسليلتهم فلم يتزوجوا من غير بيوت الاكفاء والاقران .

اما جدهم السيد محمد فقد استرسل الى اهوائـه فاساء الى شريف ارثه . بل ان فعلته التي اضرت ولا شك بسليلته لتتجاوز الاساءة لانها حدثت وهو لا يزال في ظل ابيه الابر ، قريباً من آثاره القدسية . قلت في فصل سابق كلمة في اختلاط الشعوب عنصراً ولوناً بالمزاوجـــة ، وقدمت شهوداً احياء على بعض نتائجه . انـ من يحب بيت ادريس

ويغار على خيره واسمه ليأسف جداً لما بدا من السيد محمد الاول رحمه الله وما كان عمله ليستوقف الانظار ، ويحزن الانصار ، لولا مقامه الديني والمدني ، لان من يقتنون الجواري في الحجاز وعسير ويتزوجون بهن حتى من الاشراف كثيرون . الا ان من كان بعيد النظر حكيماً يدرك ان البيت الشريف السالب السيادة والملك لا يسلم بين شريفين كبيرين ، شريف مكة وشريف صنعاء ، اذا كان لا يحافظ على شرفه في دمه ونسله .

اقتدى السيد محمد بالسادة زملائه فتزوج بجارية سودانية ولدت له ابناً دعاه علياً ، فكان بداءَة الدم الاسود في سليلة بني ادريس بعسير . ثم تزوج السيد علي بفتاة هندية هي ام السيد محمد الثاني فلم يصلح في خطأ ابيه شيئاً ظاهراً . ومع ان هذا الولد الهندي الام ، السوداني الاب انجب ونبغ في بيته ، فلا النجابة ولا النبوغ يصلحان ما تفسده السياسة بسبب النخاسة في ملكه .

ولد السيد محمد الذي يستحق ان يدعى الكبير في صبيا سنة ١٨٧٦[1] وجيء به شاباً الى مصر فدخل كلية الازهر وتخرج فيها . ثم سافر الى كفره بالمغرب فقرأ هناك على السيد السنوسي ، وجاء منها الى السودان فاقام في ارجو بدُنقُلَه ، وتزوج بابنة هرون الطويل شيخ الطريقة الاحمدية هناك . رسا وتزوج في بلاد السود ، بلاد ابيه وجدته ، لانه لم يكن في دمه وهيئته ما يوفقه الى غير ذلك . ولكن نفسه الكبيرة الشريفة ابت عليه الخمول والاستعباد . وكانت الاسفار قد زادت بعلومه ومداركه . فكبرت معها المطامع واستيقظت قواه فشد للرحيل .

(١) توفي في نيسان سنة ١٩٢٣

عاد السيد محمد من دنقله الى عسير ، الى مسقط رأسه ، الى قاعدة ملك جله في ذاك الحين صوري متزعزع ، فكانت الفوضى ضاربة في البلاد اطنابها ، وكان الترك جنوباً يحكمون حيثما يستطيعون ، ويستغوون رؤساء العشائر بمشاهرات لا يدفعون غير اليسير منها . فانقلب عليهم الطامعون واستمالهم الادريسي اليه . وقد شاهد غيرهم من المشايخ يتشاغبون ويتفانون فاستفاد بما هم فيه ، واستعان بزعيم على اخيه . حتى ساد اكثرهم فثبت كل كبير في قومه ، واقتدى بامام صنعاء فأخذ منهم الرهائن ليأمن منهم الردة والخيانة . ثم مد سيادته شمالاً وشرقا الى الجبال فجمع عدة افخاذ وبطون من العشائر تحت لوائه الذي رُفع برهة عند حصن أبها وعلى حدود حاشد وبكيل .

ولكن نجم السيد محمد لم يعلُ ويتلألأ في سماء آل ادريس الا خلال حربين بين الدولة العثمانية ودول الافرنج ، اي حربها سنة ١٩١٢ مع ايطاليا ثم اشتراكها في الحرب العظمى على الاحلاف . فقد كان في الحربين ، خصم الترك اللدود . والحلف الذي لا ينقض العهود . اخذ من الايطاليين سلاحا فاشهرها ناراً وسياسة على عدوهم وعدوه . واخذ من الانكليز مالا وسلاحا فخدم الاحلاف في الجزيرة خدمة ، وان صغرت ، لا تشوبها الاطماع ، ولا يفسدها الخداع . وقد كان لا يزال له غير الاتراك عدواً . فحارب هذا العدو كذلك بما جاء من الحليفتين . ولكن انتصاره على الزيود في ذاك الحين كان يعد انتصاراً على الاتراك .

ان من فضائل السيد محمد ثباته منذ بداءة امره على مبدأ واحد . فقد كان عربياً صميماً ، جسوراً في سبيل ما يبغيه ، يحالف اية دولة كانت على اعدائه الترك ومن كان حلفهم من امراء العرب عليه . فما تذبذب في مبدأه ، ولا تحول عن عزمه . حارب الاتراك وحليفهم

الشريف وصديقهم الامام فكان في الغالب منتصراً ودائماً عزيزاً . لا انكر ان الاحوال كانت حليفته ، ولكنه سلحها من لدنه بالعزم والمضاء .

ومما يجهل الافرنج والعرب ان السيد محمداً كان اول من انضم الى الاحلاف من امراء العرب ، واول من حمل في البلاد العربية على دولة الترك حليفة الالمان . فقد عقد معه الانكليز بوساطة حكومتهم في عدن المعاهدة الاولى في نيسان سنة ١٩١٥ التي بموجبها تعهدوا ان يمدّوه بالسلاح والمال ، ويحموا اساكل بلاده من التعديات الخارجية . فباشر في الشهر التالي القتال . خرج ابن عمه السيد مصطفى في اثني عشر الف مقاتل على الاتراك فدحرهم دحرات متواليات ، ووصلت جنوده شرقاً الى قرب صَعْده وشمالاً في تهامة الى القنفذة . ولكن الادريسي بعد ان استولى عليها في ١٠ تموز سنة ١٩١٦ اخلاها للملك حسين اكراماً لاصدقائه الانكليز الذين عقدوا معه معاهدة ثانية في كانون الثاني سنة ١٩١٧ تتعلق بجزيرة فرَسان وكان قد اخرج الحامية التركية منها واستولى عليها .

كان السيد محمد حصيفاً ذكياً ذا دهاء ، يستعين على عدوه بكل ما حوله من شقاقات وزعامات ، بالزرانيق مثلاً على الاتراك ، وبالشوافع على الزيود ، وبالعشائر على الاشراف ، وبالانكليز على الجميع وكان له عون كبير في ارثه الروحي ضاعف نفوذه الشخصي وزاد ذكاءه الفطري لمعاناً .

ان مثل هذه السياسة الروحية المدنية المتوكلة في معظم شأنها على الانكليز لا تُستغرب من امير يُعد في البلاد دخيلاً ، وهو في الدفاع عن نفسه وفي تجهيز العساكر يحتاج دائماً الى المال والسلاح .

اما خراج عسير فلا يتجاوز المئة الف ريال اي اثنا عشر الف جنيه شهرياً ، منها ثلاثون الف ريال من الحديدة [1] بيد ان جنده لا يتجاوز في ايام السلم الخمسمئة نفراً وهو يقوم اذ ذاك مقام الشرطة في البلاد .

ولكن الادريسي يستنفر في الحرب القبائل بوساطة المشايخ والمقدمين فيلبيه ثلاثون الف مقاتل ويزيد ، وهم يحاربون على الطريقة الاولى حرب البدو . يجيء رجال كل قبيلة او بطن او فخذ بزادهم وركائبهم وما عندهم من السلاح ، فيعطيهم الادريسي ما يحتاجون اليه زيادة ، ويمدهم بالذخيرة ، ويدفع فوق ذلك رواتب مرضية . ولكن الغنائم هي الجاذب الاكبر في حروب العرب كلها . لولاها لما كان جند في تلك البلاد يذكر . أما الامير الكريم الذي يغدق على المشايخ والزعماء فهو الفائز على اقرانه في السياسة ، المنتصر على اعدائه في الحروب . ولم يكن في سلاح السيد محمد الادريسي وقواته في حروبه كلها امضى من هذا السلاح اي الكرم . فقد كان يحسن كذلك الى الكثيرين من السياهلة والمشايخ الذين يؤمون صبيا من بلاد المغرب ومن مصر .

دعوته بالكبير ، وهو لا مشاحة اكبر من حكم في عسير من بني ادريس ، بل هو مدنياً سيدهم كما ان جده السيد احمد اميرهم الاكبر روحياً . وفي الاثنين ، الصوفي والسياسي ، مصدر القوة والضعف في الحكم الادريسي . ان في الاساس الديني لهذا الحكم قوة تعززه في البداءة وتضعفه في النهاية ، تعززه في دور التأسيس والنشوء ، وتخذله في دور التوسع والاستيلاء . ولا بد في الدورين من التطور ، ولا بد في التطور من التفكك في العناصر المذهبية . اي ان

(١) منها ١٥ في المئة عشور أي حبوب وغيره و ٨٥ في المئة ذهب وفضة .

حكماً مثل حكم الادريسي يضعف في التوسيع ، يرق في الامتداد ، لان اساسه المذهب واساس المذهب الطريقة . والطريقة لها مقام قد تصفو في جواره ولكنها تفسد وتعقم كلما بعدت عنه . وهاهنا العمري فشل الصوفي .

اما السياسي فمصدر الضعف فيه ، وقد ذكرت مصادر القوة في السيد محمد ، انما هو في الدم الذي تخلل صفاء النسل وسلامة النسب في بيته . وليس نبوغه وسمو اخلاقه بحجة على ما اقول . فلو كان المرء شاعراً او صوفياً او فلاحاً او تاجراً لما هم لونه ولما اثر الدم في حياته ومقاصدها . ولكن في الملك وفي السياسة ترى ذلك في يد اعدائه من الحجج القاطعة عليه . خدمت الحروب الاجنبية مقاصد السيد محمد فاتسع ملكه وما ازدادت شوكته . فقد كانت قبل الحرب حدوده جنوباً بين ميدي واللُحيّة عند سيل يدعى وادي العين ، فامتدت بعد الحرب حتى دخلت في ملكه الحديدة ومعها اللحيّة والصليف وباجل وعُبال والزيدية . ولكني لم اشاهد عندما كنت هناك ، لا في الحكم المدني ولا في السيادة الروحية ، ما يساعد على عمرانها ويثبت قدم السيد فيها .

فهل تتغير الاحوال فتخدم خلفه في ما ضنت به عليه ؟ ان ابنه البكر علياً في التاسعة عشرة من سنه . وقد بايعه الناس بعد ان عرضوا البيعة على عمه السيد حسن شقيق المرحوم السيد محمد فرفضها متعللاً بصحته وعزلته . والسيد حسن في العقد الرابع من العمر وهو يتحدى في سلوكه وزهده وجده السيد الاكبر .

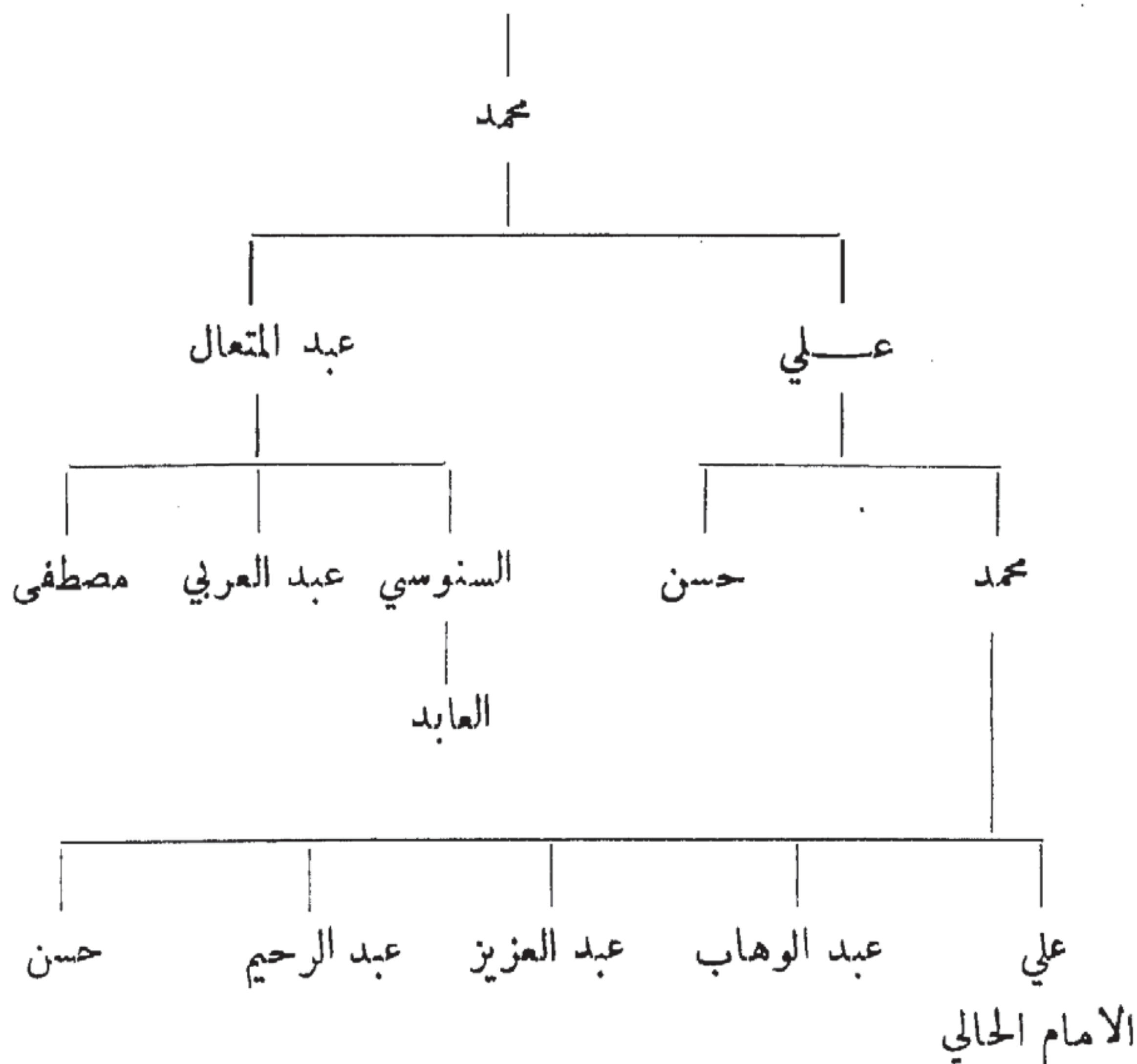
ولد السيد علي الامام الحالي في دنقله سنة ١٩٠٥ من ام سودانية هي كما تقدم ابنة الشيخ هرون الطويل . وهي اول حرم الادريسي

وكانت قد اقامت وابنها علي سبع سنوات في دنقله بعد رجوع السيد محمد منها ، ثم جاء بهما السيد مصطفى سنة ١٩١٢ الى صبيا ، فقرأ السيد علي فيها الكتاب والحديث واللغة ، ونشأ في ظل ابيه متشرباً مبادئه في السياسة والوطنية . ان العارفين هناك وفيهم سلطان لحج يثنون عليه ويقولون انه على جانب كبير من النباهة والهمة . اما المقربون اليه ففيهم رفيق صباه وصديقه الحميم السيد العابد السنوسي الادريسي المولود في مصر المقيم في جيزان . هو اديب ، عصري الروح ، ذكي الفؤاد ، له آراء حديثة صائبة في عمران البلاد قد يوفق في قربه وقرب ابيه من حضرة الامام الى تحقيقها [1] وللسيد علي اربعة اشقاءهم عبد الوهاب وعبد العزيز وعبد الرحيم . ثم حسن الصغير وامهاتهم جميعهن حبشيات .

---

(١) لم يتوفق السيد العابد ولا ابوه ولا عمه السيد مصطفى ولا الامام الشاب ومن تبقى معه من العشائر في دفع اغارات الزيود في ربيع سنة ١٩٢٥ . فاستولوا باسم الامام يحيي بن حميد الدين على الحديدة كما تقدم وعلى الاساكل البحرية الاخرى . واستمر بعد ذلك الحكم الادريسي مضطرباً متزعزعاً الى ان تنازل الامام علي عن الامارة لعمه الامير حسن الذي عقد وجلالة ملك نجد والحجاز الملك عبد العزيز ابن سعود معاهدة بمكة في سنة ١٩٢٧ شبيهة بالمعاهدات التي كان يعقدها بعض امراء العرب والانكليز اي ان لبها هو ما معناه : سنحميك بشرط ان تسمع وتذعن . وفي سنة ١٩٣٣ ضمت عسير نهائياً الى المملكة السعودية .

## شجرة البيت الحاكم في عسير



## على ظهر الباخرة

ثيابي المنشورة – رفيقي المحزون – الوداع – الرفيق الجديد – الحر والليل والامواج ساكنة – بوبخرة القهوجي – جثث المسافرين شيء ينعش – اصوات تذبح النوم – الفجر الفضاح – لا خوف على من ينام بين الحك والخارطة – ربان انكليزي كريم – يهدينا الباخرة – يجيء الى المائدة مثلنا في ثيابه الرسمية – « وخلعت نعلي اكراماً لكم ايها الافاضل » – شاطىء تهامة – جزيرة قمران – الحجاج – السيد الحضرمي – ضجيج بعد نصف الليل – الربان يساوم العبيد ويؤدبهم – التربية الشرقية والتربية الانكليزية .

جاء الجواب من الامام مرحباً بنا ، ورست في مياه الحديدة ذاك اليوم باخرة وجهتها جيزان ، فآثرناها على السيارة التي استمرت معيّدة وقمنا نتأهب للسفر بحراً الى العاصمة . لكن التأهب لا يشغل كثيراً من اصبح في ملابسه وحاجاته اخف من الجندي في تهامة . ان قصة ثيابي قصة محزنة . نثرتها في الطريق براً وبحراً . تركت الرسمية منها في مصر – ومن غير الانكليز من عباد الله يحمل ثوبه الرسمي الى البادية ؟ ثم تركت الشتوية منها في جدة ، والصيفية في عدن ، وها انا في الحديدة افاخر الدراويش والسالكين بما ارتقيت اليه من القناعة والبساطة والحكمة . اجل ، وما فضل المسافر اذا كان لا ينتفع بشيء من عادات البلاد واهلها ؟ خرجت من القصر في قيافتي الحجازية احمل عصاي وفوطة فيها ما لا يستطيع حتى السالك ان يستغني عنه .

اما رفيقي الجديد – وقد يسأل القارىء عن الرفيق الاول ، عن

القسطنطين . فالجواب واجب قبل ان استأنف السفر . فُجعت في الحديدة بفراق القسطنطين . فقد وصله كتاب من جدة فيه ان الوزير الشاعر في الديوان الهاشمي لم ينظم بيتاً في غيابه، وان الفارس الفيلسوف في القشلاق لم يسحب السيف مرة من نصابه ، وان نظارة الطيران المكسرة الاجنحة ، والطيارين يائسون ، وان مدير الميناء هجر الشراع وراح يرعى الابل ، وان الشريف الايطالي الذي استودعه ماله فرّ هارباً ، وان « توتو » كلبته المعبودة وقد اضناها الشوق والنوى ، مشرفة على الموت : فلو لم يكن من نكبة جدة في غيابه غير ما حل بتوتو لكفى بها نكبة تستوجب رجوع الرفيق الزعيم في الحال .

جاءني صباح يومٍ والكتاب بيده ، والدمعة تترقرق في زاوية عينه ، وهو يقول : اعذرني يا امين . اود ان ارافقك في الرحلة كلها . ولكن توتو – اقرأ – اقرأ ما يقوله الطبيب . توتو في حال الخطر . ولا عزيز في الدنيا كما تعلم أعز عندي منها – هوذا المركب في الميناء . سأركب اليوم فأراها بعد يومين اعذرني يا امين .

ثم نادى خادمه وبدأ يجمع ثيابه . فقلت أوّلا يبقى المدني معي ؟ فقال الولد وهو يثب من رأس الدرج الى اسفله وثبة واحدة : وأمي ، انا مشتاق الى امي ! مبالغاً على عاداته في الضم والتشديد . اطال الله بعمر امك يا مدني ، وحرس الله توتوك يا قسطنطين ، يا من لا يبالي بما يفعل ويقول يا عدو نفسه في بعض ما يراه ويهواه . رأيتك ذات يوم عائداً من الباخرة تحمل رزمة كبيرة ، كل ما وجدت في خزانة القيم من الدخان، ما قد يكفي عشرة رجال شهراً . فظننت انك تنوي المتاجرة في الحديدة بالسكاير ولكني سمعتك تقول : قد لا يرسو في الميناباخرة اخرى هذا الاسبوع .

كنت اشفق عليك منها ، ايها الرفيق العزيز ، وكنت ارى لك الخير الجم في نجد ، اجل ، كنت ابغي تأديبك هناك ، وفطمك عن هواك . فيا ليتك دمت رفيقاً لأراك « مُتبسّط » في بلاد الوهابيين اذا داومت التدخين . فما شأنك الآن وتلك اللفائف التي كانت تتلو الواحدة الاخرى في فمك ? وكنت تدخن في اول الرحلة المعطرة الذهبية الفم ، ، فصرت تدخن ، لهفي عليك ، ما لو شمت رائحتها « توتو » لأغمي عليها . وانت الشاعر الذي لا يسر بغير الجميل من منظور وملموس ومشروب ومشموم . فاسأل الله ان يعصمك دائماً من كل مكروه ، ومن كل هوس يشوه النفس ، وان يمكنك دائماً من تلك المعطرة الذهبية الفم ، ويعلمك فوق تلك الحكمة والاعتدال ، دمت محروساً في كل حال ، رفيق الحقيقة شقيق الخيال .

اما الرفيق الجديد فيحمل في اسفاره بدل الدخان سجادة الصلاة ولا يقتدي ظاهراً بالسالكين في سواها . فقد كان معه كذلك من الامتعة والحقائب ما لا يليق بالفلاسفة ، وخادم هو من السادة ، ليفرش له السجادة . وكنت انا في ذي الابهة جزءاً منهـا افتش عن رفيقي الصوفي فلا اجد غير الوكيل السياسي ، واغرب مـا في حاجاته ومواعينه سجادة الصلاة .

خرجنا من القصر فاذا بثلة من الجنود العارية في الباب رافقتنا الى الرصيف . وكان هناك وجهاء المدينة والمتوظفون في انتظارنا للوداع ، لوداع الوكيل المحترم ، وانا في معيته عباءة وعقال ليس غير . فما سرني ذلك لان البشرية آنئذٍ تغلبت فيّ على الصوفية . ثم سمعت فضل الدين يزجر العساكر والمودعين . لم يشأ ان يرافقوه في السنبوك الى الباخرة ، فاستأنست بذلك وحمدت الله . لا بد ان يظهر التصوف في صاحبه ،

في كلمته او اشارته ، ولو في الدقيقة الاخيرة من ساعة الرسميات والترهات .

وكان الهواء ساكناً ، والحرّ من شمس النهار كامناً فيه ، والبحر رهواً ، وضوء القمر عليه كالكفن يكفن الامواج فاشغل النوتيون المجاذيف ، ووصلنا بعد ساعة الى جانب بوبخرة لا صوت فيها ولا حركة ، ولا نور غير ذاك الاحمر الضئيل في رأس الدقَل . فنادى احد رجالنا الربان فلم يجبه ، ثم نادى وكرر النداء فنهض احد النوتيين يفرك عينيه ، ثم نهض آخرون وبادروا الينا يسبون ويزجرون — « لسنا بلصوص يا كلاب انزلوا السلم لحضرة الوكيل » فانزلوا السلم واعتذروا ، فصعدنا الى ما هو اشبه بمركب فحم منه بباخرة .

مشينا بين جثث بشرية عارية هامدة قضى الحر والليل اللزج عليها فلصقت بعضها ببعض ، ونامت نوم الاموات بين البضائع وفوقها ، تحت الالغام وعلى الصناديق ، في الاقذار ، في كل مكان . صعدنا سلماً آخر الى ما يسمى الدرجة الاولى فرأينا في الغرف المفتوحة ابوابها اناساً نائمين نوم الاطفال . ما ايقظ نداؤنا احداً منهم . ثم نزل الربان وهو انكليزي حليق في ثوب النوم فسلم على الوكيل واعتذر . فاستأنست بصوته المومىء الى ما في نفسه من التهذيب والكياسة ، ثم نادى احد الخدم فكفر عن اهماله بان أمر لنا بزجاجة من السودا باردة وبكأس من الوسكي . فشربنا وشكرناه ، ورغب في الحديث فحدثناه . فكان انتقالنا في ساعة الى شيء من المدنية مستحب ، وادبٍ في ربان باخرة مستغرَب .

وكأنه احسّ بما تسلل الى الاجفان فنهض يتقدمنا الى ظهر الباخرة ، الى كنفه الخاص ، حيث الاسرّة العسكرية ، فنمنا كلنا تحت القبة

الزرقاء وليس بيننا وبينها غير حجاب واحد هو الشراع . ساعة فقط . ثم ضجات وقرقعات ، واصوات تزعج الاموات ، وسلاسل تُشد ، وابواب تُسد ، وحبال تئن ، وجرس يطن ، وصوت الربان فوقها يحرك العبيد والحديد . سرت الباخرة ، وهدأت الاصوات والضجات ، فعدنا الى ما يشبه النوم وانبلج الفجر بعد قليل على وجوه صفراء ، وعيون فيها الذبول والعياء .

اول ما شاهدته قربي دولاب الربان ، ووراءه ولد في ثوب ازرق على صدره نيشان ، يقرأ الُحك ويدير الدفة . وكان الربان واقفاً قبالته وراء طاولة عليها الخارطة البحرية . . فقلت في نفسي : لا خوف على من ينام بين الخارطة والُحك . اما الولد صاحب الثوب الازرق والزنار الاحمر والنيشان فهو من الذين ورثوا الحرفة عن اجدادهم . هو من سليلة اولئك البرتقاليين الذين فتحوا الهند قبل الانكليز ، ولكنهم لم يثبتوا فيها اعزاء فقد كان الجزويت في استئثارهم عوناً للانكليز عليهم . اما ابناؤهم اليوم ، وقد اختلط دمهم بدم الهنود وسلم شيء من دينهم الكاثوليكي ، فهم يقيمون في منطقة على شاطىء الهند ويدعون غوا [1] ويستخدمهم الانكليز في كل الوظائف النوتية ما سوى العالية منها . ذكرت النيشان ، وما هو الا تطريز بالخيط الاحمر والاصفر يطرزون به قمصانهم ، كلٌ لنفسه في ساعات الراحة من العمل . ما رأيت في النوتيين انظف ثوباً ، واخف حركة ، والطف شكلا ، من ولد الـ « غوا » ابن الهند والبرتقال .

كشف الفجر عن البويخرة وركبها فكان فضاحاً . هاك رهطاً كرهط الحجاج في اشكالهم والوانهم قومياتهم وقيافاتهم وعدم اكتراثهم بما هم

(١) نسبة الى منطقة غوا Goa .

فيه من ضيق وحريق وقذارة . كل يهتم بامره ، لمـــا يلزم المؤمن ويتحتم عليه ساعة الفجر . هذا يصلي ، وذاك يدق البن . هنـا امرأة تنفخ بالنار . وهناك شيخ يغسل فناجين القهوة ، وآخر يدخن المداعة. هذا يعد اكياسه ، وذاك يلبس ثيابه ، وهناك فوق زنابيل التمر شاب احكم بين رجليه مرآة صغيرة وهو يلف عمامة على رأسه لفـــاً هندياً بتأني الفتاة التي تجلس الى المرآة تزين شعرها ، والى جانبي سابر الغور يرمي بحديدته الى القعر ويسحبها منادياً بالانكليزية ، سبعة ، ثمانية ، عشرة ونصف ! فلا نزال قريبين من الشاطىء شاطىء تهامة الموحش العقيم ، ولا يزال رفاقي نائمين الا" فضل الدين فقد كان تلك الساعة من المصلين .

ان الباخرة التي نحن فيها مسافرون، وقد صنعت في بلاد الانكليز، هي من بواخر القهوجي المشهور في عـــدن والبحر الاحمر ، صاحب صديقنا خان باهادور،الفيلسوف الحديدي . والقهوجي اسم لشركة من « عبدة النار » نوتيوها كما ذكرت من الـ « غوا » نصف المسيحيين ، وربانها، ومعاونه والمهندس من الكفار الذين صنعت الباخرة في بلادهم. هذه شركة ملاحة شرقية هندية ، ولكنها لا تستغني عن الانكليز مديرين لبواخرها . وهذا الانكليزي ، وقـــد اعتاد ان يأمر في الشرق ، لا يتمعض من حـــال توجب عليـــه الائتمار باوامر الهنود سادته .

قال الربان هاي : كنت قبل الحرب اسيّر باخرة في المحيط الاطلنطي محمولها خمسة وعشرون الف طن . وتراني الآن على رأس هذا المركب العجيب اخدم القهوجي البارسي بخمس ما كنت اتقاضاه من شركة انكليزية . ومـــا العمل ؟ حامض القهوجي خير من مر

البطالة في بلادي ... ولكني احب العرب واحترمهم . ما رأيت شعباً هادئاً في السفر كريماً ، على ما تراهم فيه ، مخلداً الى السكينة ، جليداً قنوعاً سكوتاً مثل العرب .

نزلنا الى المائدة في ثيابنا الرسمية ، انا في قميص البدوية وارداني مربوطة حول وسطي ، وفضل الدين في سرواله الهندي وتكتّه تصل الى ركبته . وجاءنا الربان هاي ، بارك الله فيه وفي ذوقه ، حافياً يلبس « البيجاما » ، ثوب النوم . جلسنا الى المائدة وهو يقول : خلعت نعليّ اكراماً لكم ايها الافاضل . اهلاً وسهلاً بكم الى بيت القهوجي ، بل الى بيتكم . الباخرة لكم ، تأمرون فيها بما تشاؤون .

كذلك كنا نجتمع الى المائدة ورئيسها هذا الانكليزي المهذب الفاضل الذي رأت عيناه احسن من « افريقيا »[1] باخرة واحسن منا ركباً . وهو دوماً لا يرى غير الحسن في الناس . وما كان في حديثه مرة مستهجناً : بل دائماً مفكهاً مفيداً . الرسميات ؟ ربطنا في عنقها صخراً ورميناها في البحر ، فبدت لذلك الباخرة الصغيرة وبفضل الربان هاي ، ونحن في كنفه على الظهر في عزلة الاماجد وعزهم ، بدت كيختنا الخاص ، لا نتكلف فيه شيئاً يزعج او يسيء ، ولا نضطر الى اجهاد النفس حتى في لبس النعال . بدو متحضرون ، برابرة متمدنون ؟ اي وابيك . انما هذه هي اللذة الصافية الحقيقة في الاسفار البحرية .

كنا نسير في مضايق خفية وظاهرة قرب الشاطىء بين جزر صغيرة لا اسماء لها ، الا قمران وهي اكبرها . ولها في جنوبي البحر الاحمر من الاهمية ما للطور في الشمال ، لان فيها محجراً صحياً للحجاج

(١) اسم الباخرة .

القادمين بحراً من الشرق ، من الهند وجاوه ومن العراق وايران ، فيعرجون عليها للتطهر في رواحهم ومجيئهم ، قبل الحج وبعده ، فتتقاضاهم السلطة الانكليزية رسماً مدة الثلاثة الايام التي يقيمون فيها . وجلالة الملك حسين يحتج على الرسم ، وعلى الثلاثة الايام ، وعلى محجر قمران ، وعلى الجزيرة كلها بجذافيرها . لا لزوم لها وعندنا جزيرة ابي سعد . هذا صحيح . ولكن في قمران مركزاً لاسلكياً افادنا ، ومعمل ثلج انعشنا ونحن في الحديدة . وهما يفيدان وينعشان كثيرين غيرنا ، فلا نشارك جلالة الملك اذن الا في قسم من احتجاجه . لا تظلموا الحجاج بدفع الرسوم .

وها هي الجزيرة الى شمالنا ونحن نسير بينها وبين الشاطىء . وها هي الخارطة على منضدة الربان تنبيء بالاعماق المختلفة تحتنا وحولنا . من هو يا ترى اول من سبر هذا البحر العربي ، البحر الاحمر ، وغيره من بحار الشرق ؟ من ذا الذي ركب الامواج والاهوال ومد يده الى مكامن اليم يستطلع اسراره . ويكشف للنوتي اخطاره ؟ من ذا الذي قاس المد فيه والجزر وحدد الطرق بين الصخور الكامنة تحت المياه ؟ من ذا الذي فتح سبل البواخر وامّنها في الليل بالانوار ؟ هو الانكليزي ابن البحار وسيدها . ليعترف بفضله كل من سيّر باخرة في البحار الشرقية ولجأ الى علومه ليسلم من الاخطار .

اجل قد تستغني البواخر الشرقية عن الربان الانكليزي . ولكنها لا تستغني مهما كانت عظيمة عن خرائط الانكليز البحرية . هب ان دولة بريطانيا تفككت غداً وتقسمت ، وعادت انكلترا كما كانت عهد السكون الاولين ، حكومة صغيرة وامة مثل جزائرها حقيرة ، فهي تظل غنية بعلومها ورجالها . ولا خوف وايم الحق على امة

عندها العلم وعندها الرجال . لا ترتب ايها القارىء العزيز بما اقول . ان الانكليزي الاصيل هو مثل هـذا الربان الذي يسقط من عرشه ويظل مليكاً باخلاقه في احط الحالات الاجتماعية واحقرها ، مليكاً يعمل ليومه ، ولا يأنف ولا يشمخ ولا يكابر . بل يعمل العمل المفروض عليه مجداً مخلصاً نزيهاً .

كان معنا في الدرجة الاولى رجل من حضرموت ينام في الغرفة لا على ظهر الباخرة ولا يؤاكلنا . رجل طويل القامة ، حسن الطلعة ، قوي البنية ، مفتول الساق . وهو من سادات صَيْوُون ، مدينة العلم في ذاك القطر ، ومن ادبائهـــا ، حاد الذهن ، فصيح اللسان . حدثته فحدثني متنازلاً متكلفاً ، وما كان في ما باح به ليخرج من دائرة التكتم والتأدب . الا اني علمت من تلويحاته انه عالم من العلماء وخطيب من خطباء حضرموت المشهورين . وهو ينظم كذلك الشعر . قرأ شوقي وحافظ ابراهيم والمنفلوطي والبستاني وغيرهم من شعراء وادباء مصر وسوريا ، ولم يسمع بالريحاني الا مؤخراً في عدن .

— سمعت ان الاستاذ جاسوس للانكليز .

— قد يكون ذلك .

— وكيف ينخدع به امراؤنا يا ترى ؟

— العصمة لله .

— صحيح . ولكني سمعت كذلك انه رسول الملك حسين وفي خدمته وانه مع ذلك يحسن اللغة العربية .

— كثيرون حتى في الحجاز من لا يحسنون اللغة العربية .

— صحيح . وفي حضرموت كذلك .

— وهل انت مسافر الى جيزان ؟
— ان وفق الله .

وكان قد اخبرنا الربان ان السيد من تجار حضرموت ، حسب ادعائه ، وانه مسافر الى ميدي . ولكن رفيقاً من عدن اخبرني انه رآه في دار الاعتماد هناك يبغي مقابلة المعاون . ثم علمت انه من زعماء الحزب الكثيري في حضرموت القائم على الحزب القُعَيطي وسلطانه ، وانه جاء ليرفع قضيته الى الانكليز في عدن والى السيد في جيزان . اما فضل الدين الذي يعرف السادة من رائحتهم فقال اذ رأى الرجل : هوذا سيد شحاذ . كثيرون مثله يجيئون الى جيزان ليمدحوا السيد ويستجدوه . وعندما نزل مساء ذاك اليوم في ميدي ظننت فضل الدين متحاملًا فقلت : بل هو تاجر كما قال الربان . فاجابني هو شحاذ كما اقول . وسيرجع وسترى . قد قدر الله ان يكون الرجل رفيقنا الى جيزان ومنها ، فسيسمع القارىء عنه ومنه في ما بعد .

ميدي بنت الحرب ، اي انها نشأت في اثنائها وهي اكبر مدينة تجارية اليوم بين الحديدة وجيزان . بيد انه لا وكالة لشركة القهوجي فيها فيضطر الربان ان يقاول العمال الذين يجيئون لنقل البضاعة من الباخرة الى الميناء ويدفع اجورهم . واكثر هؤلاء من العبيد والمولدين. هذه كلمة تمهيد لما اقص عليك . نمت تلك الليلة على عادتي فاستفقت منتصف الليل لاصوات تلج وتضج وقد اختلط اللسانان فيها الانكليزي والعربي ، وتناكرا .

— يا اولاد الزنى تجيئون في هذه الساعة من الليل تساوموني ؟
عرفت من الصوت ان الربان يتكلم . ثم — وهي الكلمة العربية

الوحيدة التي يحسنها – امش ، امش .

وكان الربان الثاني وهو رجل ضخم الجثة عريض الصوت قد استفاق مثلي وسمع زميله يتسخط ويسب . فخاطبه بصوت عريض ناعس مطاط :

دعهم يا قبطان وعد الى سريرك. اولاد الزنى غدارون. ثم الربان. يا نتانة العبيد ، يجيئكم رزقكم فلا تقبلونه الا بشروط . امش ، امش ! والا اكسّر رؤوسكم . اذا كان القهوجي يعبد النار فهل يحق لكم ان تسرقوه ، يا نتانة العبيد يا اولاد الزنى ! اذا كنتم لا تشتغلون بروبية واحدة مثل العادة – امش .

ثم الربان الثاني وهو يقلب في سريره من جنب الى جنب ويئن : دعهم يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى ، انا اعرفهم ، غدارون .

الربان : ما في شغل لكم ، امش . الباخرة تسافر هذه الساعة ، امش .

زعيم العمال – على ما ظننت – باللسان الانكليزي المفجع : يشتغلون يا قبطان كما تريد . يشتغلون بروبية واحدة . انا الكفيل .

ثم سمعت الربان وهو عائد الى سريره يقول : اذا كان الانسان يعبد النار فهل يحق لهؤلاء العبيد ان يسرقوه .

ولكن العبيد قبلوا ، شكراً لغضبه وامانته ، ان يشتغلوا بروبية واحدة ، فباشروا عملهم في الليل وأتموه قبل الفجر . هذه هي الحادثة التي ايقظتني تلك الليلة فسلبني العبيد بعد ذلك ، في ضجيج العمل والقرقعة ، الراحة والنوم . ومع ذلك قد كنت مسروراً بما علمت .

لا اظن ان شركة القهوجي التي لا يزعج يقظتها الدائمة شيء في البر والبحر تعرف ان ربان احدى بواخرها يدافع عن مصلحتها هـــذا الدفاع . ولا اظن ان الربان هاي ، وانا اعرف شيئاً من طبــاع امثاله الانكليز ، يخبرها ويمن عليها . فهو يعمل ما يعتقده واجبــاً عليه ويسكت .

# جيزان

القلعة - المدينة - الذهب والفضة - جيزان في ايام الحرب - المتاجرة - الزوار - الى السدة الادريسية - الاستقبال العسكري والسياسي - في مجلس الامام - « غسان ريحانة العرب » - « هل ملك اميركا اليوم من الهنود ؟ » - « هل للاميركيين دين ؟ » - الاقتراع والانتخاب - قصة جورج واشنطون - استحسان السيد محمد واعتراضه - سؤال في الجغرافية - قصة لم تقص - محاسن السيد محمد - اجتماعنا به في الليل - الحر في جيزان .

وصلنا الى جيزان بعد الظهر ساعة الجزر ، فانكشفت امامنا ونحن في السنبوك بقعة من الارض سوداء بين الشاطىء والماء لا يمكن للمرء اجتيازها الا حافياً مشمراً . فلاقانا الى حد الجزر رجال يحملون الكراسي او بالحري الأسرة التي تشبه العنقريب ، فانزلونا واجلسونا فيها ، وحملونا على مناكبهم الى البر في شبه السبخة التي كانوا يغرقون فيها الى الركبة وهناك استقبلنا بعض الجنود والمتوظفين يتقدمهم السيد العابد ابن السيد السنوسي الادريسي الذي رحب بنا باسم حضرة الامام ومضى وايانا الى القلعة القائمة على ربوة خارج البلدة قريبة منها ومن البحر . والقلعة هذه نصفها قديم هندسته يمانية ، اي انه ضخم البناء رفيعه صغير النوافذ قليلها ، والنصف الآخر جديد بناه السيد مصطفى الادريسي وأعده للضيافة التي يليق بها . فهو يشتمل على عدة غرف كبيرة ترقص فيها الشمس ويلعب فيها الهواء والغبار ، وعلى حرشين الواحد ضمن الآخر ، وحمام ومائدة افرنجية ، وسطح مسوّر جميل .

كنت مما سمعته عن جيزان امثل لنفسي بيتاً من القش نقيم فيـــه ، وجواري حبشيات يخدمننا ، وولداناً يقفون فوق رؤوسنا وبايديهم المراوح يروّحون . اما الجواري فما رأينا غير أثر من آثار ايديهن في الدواوين البيضاء الشريفة ، والوسائد الوثيرة اللطيفة ، واغطية الفرش النظيفة . واما الولدان فكانوا واقفين في الحوش يحملون بدل المراوح البنادق والجنبيات .

جيزان بلدة قديمة في تهامة تكاد تبعد عن ابي عريش شرقاً بعدها عن صبيا شمالاً . فهي من البـــلدتين رأس المثلث على البحر الذي يحيطها كالهلال من ثلاث جهات . بلدة صغيرة لا يتجاوز سكانها الستة الاف نفساً ولكنها كانت في الماضي على ما يقال اكبر مما هي اليوم واوسع عمراناً . بناها احد المحسنين الى الانسانية ليقرّب ابناء الجبال من البحر والرزق ، احد المحسنين المدفونة اسماؤهم في آثارهم .

نظرنا اليها وهي من القلعة شمالاً فاذا هناك مجموعة اكواخ من القش هرمية الشكل تتخللها بيوت من الحجارة شبيهة بمعابد الاقدمين ، مربعُ اعلاها اصغر من مربع ادناها . وبينها مفردات وثريات من النخيل ، وحولهـا ذاك الخـط الذي يحيط بها كنعلة الفرس ، وهو ازرق ساعة المد ، اسود ساعة الجزر ، اصفر في ساعات الشفق والغروب . وفي الساحة الكبيرة بينها وبيننا قفص من القش يأوي اليه أحد الحرس في النهار . وفي الجهة الغربية من الساحة المسجد الجامع ، وهو بناء صغير ذو مأذنة متواضعة وايوان تحتله الشمس طول النهار . ووراء القلعة ، او بالحري القصر شرقاً بجنوب ، قلعة اخرى تشرف على البلد والبحر ، فيها بعض المدافع وحولها

المتاريس .

سررنا ببيتنا الجديد ، وهو احسن ما في جيزان مركزاً وبناء ، واستأنسنا بمشاهد من نوافذه لا أبهة فيها ولا جلال . ولكنها تومىء كلها الى حياة بشرية بسيطة ، اجمل ما فيها ، من وجهة فلسفية ، القناعة والصبر والسكينة والاطمئنان . على اني من وجهة اقتصادية ، حرت في امر اصحاب هذه الفضائل القدسية .حرت في امر اهل هذه البلدة وموارد رزقهم .

عندما رسونا في مياه جيزان كان اول ما دنا من الباخرة سنبوك يحمل صاحبه بعض الرسائل واكياساً صغيرة تقيلة ، اكياساً عديدة فيها الذهب والفضة . فسألت الربان هاي عما اذا كان لمصرف عدن فرع في جيزان . فضحك ثم قال : اني اعجب لهذا الامر . من اين يجيء الذهب الى هذه البلدة ؟ وفي كل سفرة نحمل منه اكياساً الى عدن .

اجل ، ان في جيزان ذهباً وفضة ، وان كنت لا ترى فيها سوقاً او اثراً ظاهراً للتجارة . وان في جيزان ستة الاف نفس تحيا وتحمد الله ، وان كنت لا ترى حولها بقعة ارض خضراء . فمن اين يجيئهم الرزق وكيف يتاجرون ويثرون ويتمكنون من تخزين اموالهم ذهباً وفضة في المصارف بعدن ؟ سؤال بدهي حري بالجواب .

كانت جيزان في سنتي الحرب الاولين المدينة الوحيدة في تهامة المفتوحة للتجارة . وكان القسم الغربي من شبه الجزيرة او جله يستقي من مواردها ، فكان ميناؤها ميناء البلاد كلها . ثم انتقلت التجارة الى ميدي . اما اليوم فجيزان هي احدى عاصمتي الادريسي . وهذ

اول مصادر الخير فيها . هي نقطـة دائرة خصبة انحاؤها ، غضـة حواشيها . يؤمها الناس من المغرب الاقصى ومن مصر ومن اعـالي عسير ومن المدن في تهامة جنوباً وشمالاً ، فيجيء معهم الرزق ،التجارة والكسب والخيرات . يحمل الحنطة اليها تجار ميدي وابناء الجبال ، ويحملون من معادنها الملح ومن شواطئها البضاعة التي تجيء بها بواخر القهوجي والسنابيك . جيزان مركز استيراد وتوزيـع . جيزان مورد تجري اليه الاموال من هذه الجهة ومن تلك ، فتتوزع منه الى الجهات كلها . وهكذا تعيش جيزان من لا شيء يُرى ، وتضيف فوق ذلك السادات والعربان ، وتغدق على كل محـتوم كسلان . اما سيد هـذه الحركة الخفية ، وقطب تلك الاريحية ، فهو السيد الادريسي .

جـاء رسوله بعد ساعتين من وصولنـا يدعونا اليه ، فركبنا الا « َموتر » ( السيـارة ) وسرنا في اسواق البلدة الضيقة والصبيان يركضون وراءنا ويصيحون حتى وصلنا في المنحنى الغربي منهـا الى ربوة تشرف على البحر يحيط بها سور كبير . استقبلنا خارج السور فرقـة من الجنود الادريسية اصحاب الشعور المنفوشة ، والصدور المكشوفة ، والبنادق المشوفة . لا ضباط من الترك ها هنا ولا صوت الزامل ولا البرزان . نزلنا من السيارة ومشينا بـين صفين من الجنود الى بوابة حارسها مولد عمليق سلّم ويده على رأسه وادخلنا آمنـين ، فاذا نحن في حوش كبير وبين آخرين من الجنود . مشى فريق منهـم الى باب دخلناه فاذا بقيّم مولانا واعوانه يسلمون ويرحبون . حلّوا محل الجنود فتقدمونا الى حوش ثالث واستقبلنا عند بابه وزيرا حضرة الامام والحاشية ، فدخلنا واياهم الى رواق صغير ، وقفنا فيه عند باب

كبير فخلعنا نعالنا هناك ودخلنا الى المقام الشريف المنيف ، الى قدس الاقداس والتقديس ، الى مجلس مولانا الامام ابن ادريس .

وما المكان غير بضعة ابواع من ارض الله وسقفه القبة الزرقاء . وهو محاط باربعة جدران عالية في احدها باب يفضي الى بيت الحريم ، وفي الثاني باب يدخل الامام ويخرج منه ، وفي الثالث باب المسجد الخاص . اما الساحة ففي وسطها منصة تعلو قدماً واحدة عن حاشيتها مفروشة بالسجاد والدواوين المرتفعة والمساند . هوذا المجلس الشريف والمقام المنيف ، وفي صدره حضرة الامام جالساً ، ووراءه عبد يروح له بمروحة كبيرة من الخوص .

وقف لنا ورحب بنا ترحيباً جميلا . فسلم على الدكتور فضل الدين سلام الامامة على احد المقربين منها ، قبله في وجهه ، وسلم علي مصافحاً ، ثم امر لنا بالجلوس على ديوان قربه . وكان في المجلس ساعتئذ السيد السنوسي والمفتي وقاضي القضاة وغيرهم من اصحاب الوجاهة والعلم .

رأيتني لاول مرة امام سيد من السود ، امام زنجي يسود مليونا من العرب ، وفيهم الوف من السليلة النبوية . فسادني لاول وهلة الصمت ولكنه ما كاد يتكلم مسترسلا حتى ارتحت الى حديثه وملت اليه ، فرأيتني رويداً رويداً مكبراً الرجل معجباً به . كان السيد محمد بن علي بن محمد بن احمد بن ادريس ، رحمهم الله اجمعين ، جاحظ العين صغيرها ، رفيع الجبين ، دقيق الانف ، ضخم الشفة والرقبة ، مستدير الوجه ، نحيف اليدين ، عريض المنكبين ، طويل القامة ، شديد البأس واللهجة والغضب . لم يكن فيه من ملامح الزنوج البارزة غير فمه ، وشكل وجهه ، ولونه الشديد السواد . وكان فيه

من اثر العنصر السامي الآري ـ اسلفت القول ان امه هندية ــ مـــا ذكرت ، اي الانف والجبين واليدين . وكان يلبس النظارات الملونة لضعف في عينيه ، ويجلس متربعاً على الديوان ، ويتكلم بصوت عال فيه بعض الغنة ،وله في الوقفات اشارة تمكين خاصة به كأنه يجر الالف والهاء ثم الهاء والالف ليثبت ما يقول .

شكرته على ما لقيناه في الطريق منذ دخولنا بلاده من الحفاوة والضيافة والاكرام ، فقال : هذا ما نبغيه ، وهو قليل في جانب ما تسعون اليه . انتم تسيحون في البلاد العربية لخيرهـــا وخير اهلها ، وتقاسون المشقات من اجلهم ومن اجلنا نحن حكامها . فتستحقـون اضعاف الاكرام الذي تشكروننا عليه . ولا شكر يا حضرة الاديب على الواجب .

فقلت : وانا كذلك اقوم في رحلتي بما اعتقده واجباً عليّ . اني اشعر بان في عروقي من الدم الذي يجـــري في عروق العرب . اظن ذلك ، بل اعتقده . نعم ، وان كثيرين في بر الشام من قحطان ، من بني غسان ، مثلي .

فقال السيد وهو يرفع النظارات عن عينيه : ونعم النسب . غسان ريحانة العرب . ونحن نحترم كل عربي صميم يعرف الواجب عليه ويقوم به من قحطان كان او من عدنان . نحن يا حضرة الاديب عرب قبل كل شيء ،ونغار على اصغر صغائر الامور الوطنية من المطامع الاجنبية والسياسية الاوروبية .

ثم انتقل فوراً الى اميركا . كأنه لم يشأ ان يكون الحديث ساعتئذ في الموضوع الذي لمس حاشية من حواشيه . وكانت سؤالاته تدل على انه عالم ببعض شؤون تلك البلاد الا انه لم يطالع تاريخها .

قصصت عليه قصة نيويورك واصحابها الهنود الاولين وبيعهم المدينة الى الاوروبيين بشيء من الودع لا تتجاوز قيمته الخمسة وعشرين ريالاً . فسر جداً بها وسألني قائلاً : وهل ملك اميركا اليوم من لهنود ؟

حدثته عن الجمهورية الاميركية ورئيسها .

فقال : وهل للاميركيين دين ؟ فاجبته قائلاً : شيء من الدين ، نعم . ثم سألني وكأنه كان يستدرجني الى امرٍ اراده ، لانه كان عالماً بما في اميركا من الاديان .

– وهل الكاثوليك هناك اكثر من البروتستانت ؟ – وكم عددهم ؟

– لا يقل عن عشرة ملايين .

– كثير . وما تأثيرهم في السياسة ؟

– يزداد نفوذهم يوماً فيوماً .

– وهل يكون رئيس البلاد منهم ؟

– ليس ما يمنع ذلك دستورياً . ولكن الحكم في البلاد للاكثرية وبالانتخاب .

فاستزادني ايضاحاً في طريقة الانتخاب وكان يعي الكلام ويتأمله ويهز برأسه من حين الى حين استحساناً .

– ولكنهم يبذلون اموالاً كثيرة في انتخاب الرئيس . أفما كان خيراً بان يعطوه ربعها راتباً ويقيموه ملكاً عليهم ؟ فيوفروا ملايين من الريالات .

– كان جورج وشنطون يا مولاي رئيساً اولاً وثانياً – هي القصة التي كنت اقصها على امراء العرب وفي مجالسهم ، وصرت اخجل ان اردها : « ما هربنا من الملوك لنقيم ملكاً علينا » كلمة قالها

جورج وشنطون ، ابو الجمهورية ، اعجب بها كل من سمعها في الجزيرة . اما السيد محمد فقال : امرنا نحن العرب غــير امر الاميركيين . اذا رفض اميرنا الامــارة فعشرون حوله يطلبونهــا ويتنازعونهــا ويحتربون من اجلها . على الامير الحاكم اذن وهذه حالنا، مهما تعددت تكاليف الملك واشتدت صعوباته ، ان يقف مكانه كالجندي ويقوم بواجبه دفعاً للفوضى ، وحقناً للدماء .

ثم انتقل مرة اخرى فوراً . ومــا كان اسرعه انتقالاً وابعده ، فسألني سؤالا جغرافياً : وهل اميركا بعيدة عن خط الاستواء ؟

– اميركا الشمالية من حدودها الجنوبية تبعد عن خـط الاستواء يا مولاي خمسة عشر يوماً في البحر . واميركا كلها ، اي قـارة العالم الجديد ، هي شطران ، الشطر الاكبر شمالاً والشطر الاصغر جنوباً من خط الاستواء .

– وهل يمكن الوصول الى روسيا عن طريق اميركا ؟

– بحراً من سان فرنسيسكو الى اليابان ثم الى سيبيريا فروسيا ، نعم .

– نعلم هذا ولكن هناك طريق اقصر . بين آخر بر اميركا واخر بر روسيا مضيق ، اتذكر اسمه ؟

– مضيق بيرِنغ .

– نعم ، مضيق بيرنغ ما هي المسافة بين البرين ؟

وها هنا رأيت نفسي في مضيق من البحث . ما جال قط في ذهني اني سأسأل مسائل جغرافيــة في مجلس الامام لا استطيع الجواب عليها . ولا تأهبت لمثل هذه المبادهة المزعجة . فقلت، لا ادري . ولكني اظن ... وكان ظني بعيداً عن الحقيقة . ولا عجب . ان آخر عهدي

بضيق بيرنغ يوم كنت ادرس الجغرافية في مدرسة ليلية بنيويورك ، وكان استاذنا يقول بين المزح والجد : من يجيد السباحة يمكنه ان يسبح من اميركا الى روسيا .

لكني لم اتذكر القصة الا بعد خروجنـــا من مجلس الامام ، فتأسفت جداً . ولمت ذاكرتي ووبختها لانها لا تلبيني ساعة يلزم ويليق فتنسيني قصة افكه حضرة الامام بهاوتعيدها الى الذهن ساعة لا تفيد . ثم قلت في نفسي : سأقصها في المقابلة الثانية ان شاء الله . ولكن الامام لم يدن بعدئذٍ من الموضوع . ولا انا ، والحق يقـال ، تذكرت القصة الا مرة واحدة وذلك لما كنا نتباحث في المعاهــدة بينه وبين الملك حسين . فكيف يجوز ان اوقف البحث لاقص قصة مهما كانت مضحكة ؟ هل اقول له : على ذكر بني عائض يا مولاي ، او على ذكر القنفذة اقص عليـك قصة مضيق بـيرنغ ؟ حالت السياسة والذاكرة دون القصة ورغبتي في قصها .

خرجت من مجلسه وفيّ من الرجل تذكارات كلها حب واعجاب ، وهي اليوم ، وانا بعد سنتين اعيد ذكرهـا ، لا تحرّك فيّ غـير الاعجاب والحب . فيصح اذن ان انقل الى القارىء كلمة من مذكراتي في جيزان .

اول مـا يروقك ويطربك من السيد محمد لسانه العربي الفصيح المجرد عن الاصطلاحات واللهجات المحليـة . ثم وقفاتـه في الحديث وكلمته – إها – في التمكين والتثبيت . واول نظرة في مواهبـه واخلاقه تريك انـه ذكي الفؤاد شديد العارضة ، حصيف حكيم ، وهـو ساذج ، كريم الاخلاق . لا اثر للروحانيات في وجهـه .

ولكن قياس الفراسة الذي يصح في البيض قلما يصح في السود. ان في الولايات المتحدة سوداً يسرقون الدجاج وسوداً لا يحيون بغير الكتاب المقدس والسيد المسيح – جاء في المزمور الواحد والخمسين: طهرني بالزوفى فاطهر. اغسلني فابيض اكثر من الثلج. وهم يؤمنون بكل الانبياء وبكل شيء. اذا خيرت احداً منهم في رئاسة الجمهورية وقيثارة داود يفضل القيثارة ولا غرو .... قد تكون روحانية السيد محمد اذن كامنة لا تظهرها كلمات اللغة وسيماء الوجوه، لا تظهرها غير الاعمال. واني متيقن انه لو كان في الولايات المتحدة لساد الملايين من السود هناك.

نظرة ثانية. اضف الى ما تقدم ان السيد محمد الادريسي صريح في حديثه، صادق في ما يقول، ساذج في ما هو دون معقوله ومعلومه. كبير الخلق والقلب. يميل الى السلم والائتلاف... احسن ما في العبد قلبه اذا حسنت اخلاقه. واكبر ما في السيد محمد قلبه ولا غرو...

تعددت الجلسات والاحاديث التي كان قطب دائرتها اولاً الملك حسين والوحدة العربية وثانياً الامام يحيى والصلح. وكان اجتماعنا دائماً ليلاً لان الحر في جيزان لا يأذن بالتجوال او بالاعمال نهاراً. فكنا بحكم الشمس والبحر، والميزان دائماً فوق المئة (فارنهيت) في الظل، نستسلم الى ما تبطل فيه الحركات كلها، الا حركة التنفس. وهذه تضعف احياناً فنقف نستغيث. ولكننا كنا نحمد الله مرتين في النهار على حمامين باردين بكرة واصيلاً ونفكر ليلاً عما نهمله عمداً او في حال الاغماء من المحامد.

خبرت الحر في اماكن كثيرة، من المكسيك الى عدن والعراق،

فما وجدت حراً جامعاً محاسن الحر كلها وفي اعلى درجة منهـــا مثل جيزان . ان الشمس هنا قريبة جداً منك . كأنها على الارض تشتعل فترسل اشعتها عكساً الى كبد السماء . بل كأنها حبيبتك تشاركك في الحياة فتجلس على ركبتك تقبلك في فمك قبلة تدوم دون انقطاع اثنتي عشرة ساعة . واذا نظرت اليها وانت تلجأ الى الماء منها تراها ترقص في هواء كأنه حجاب من الشاش الهندي الابيض فتبدو اشعتهـــا فيه كخيوط الفضة ساعة الظهر ، وكالوهج الاصفر ساعة الاصيل فترفـع يديك الى عينيك لتقيهما سهامها الذهبية .

امـــا الرطوبة ، وها هنا يشترك البحر والشمس عليك ، فلها لون يجيئها من يدي المد والجزر ، ولها جسم يجيئها من كرم العناصر في تهامة ، ورائحة هي رائحة الطحلب والسبخة والملح ، ولها فوق ذلك خاصة في الهيام تلصقها بك اذا دنت منك . فهي كورق الغراء الحـــلو تجذب الذبابة اليها فتعلق بها . بل هي كثوب يلبسكه البحر وقد رآك تنزع كل ثيابك من اجل معبودتك الشمس ، فتلبسه كرهاً وانت تشتهي فوقه ثوباً من الامواج . لله موجة تعيد اليك الحيـــاة . ولكنك في القلعة ، في القصر ، ضيف محترم . والامواج تحتك للفتيان والفتيات يلاعبونها ، فلا يليق بك ، في ذي البلاد العربية التي يرم فيها الاحترام فيؤلم ، ما يجوز للصبيان .

## بين الامامين

ساعة الاكل والرأس المقطوع – ساعة الاستقبال والخيل والليل – السيد والملك حسين – « المسئلة بيننا وبين الشريف قريبة ميسرة » – ابن سعود – المحالفة الرباعية – الاتراك – « حاربناهم واخرجناهم من البلاد» – الامـــام يحيى – «كنا واياه متماهدين» – قصاصة من ورق – كتاب من الامام الى الادريسي – « وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه » – كتاب من الادريسي الى الامام – « وقد انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة » – الفرق بين الامامين .

كنا في القلعة نحوم على الظل حوم الفراش على النور ، فننتقل من غرفة الى غرفة ، ومن رواق الى رواق ، اتقاء وجه الشمس . ومـا كنا نخشى مثل ساعة الظهر خطباً ، ساعة يجيء الخدم من بيت السيد السنوسي وعلى رؤوسهم الاطباق ، وفي مقدمتهم طبق عليه غطاء ، وتحت الغطاء الرأس المقطوع . فنجلس الى مائدة شيخها هذا الذي كان منذ ساعة حياً وقد حُشي بالارز والبيض والزبيب ، وفي الوسط الرأس ينظر عطفا اليك . اخجلني والله وحبب اليّ التنحس في مذهب الهندوس .

والحق يقال انني مللت اللحم ، خصوصاً في مثل ذلك القيظ ، وكنت اشتهي بعد سف شيء من الارز بقعةً خضراء ارعى فيها . واشتهي قبل كل شيء الماء فاجده في النعارة فاتراً ، فاصبه في الكأس فاذا هو اصفر اللون ، فاغمض عيني واشرب باسم الله . اما كرم الادارسة فما كان ليخلّ قطعاً بقاعدة الضيافة عندهم –«قوزي» كل يوم . اغدق الله عليكم ايها الافاضل ، وبارك الله فيك يا جيزان ، بركة تشمل

من اجل سادتنا بني ادريس آلة لتصفية الماء ومعملاً للثلج .

— هات المروحة يا أبكر .

يدخل السيد أبكر وبيده عدة مراوح وعلى لسانه خبر ما سرفضل الدين .

— قل له الحكيم نائم . ليجئني منتصف الليل .

ثم يدخل الحاجب . الشيخ الشنقيطي يبغي التسليم على الاستاذ .

— صلِّ على النبي . هات القميص والعباءة يا أبكر .

وكان فضل الدين يدفع عني احياناً مؤونة المقابلات في النهار .

— قل للشيخ ان الاستاذ لا يستقبل الا ليلاً — بعد منتصف الليل .

كذلك تنعكس الحياة في تُهامة ، تُقعدنا الشمس ، تنهكنا ، فيجيئنا الليل منجداً ويوقظنا القمر. ساعة من الفرج — الا اننا والحق يقال لم نكن لنسر بشيء سرورنا بكلمة الحاجب : جاءت الخيـل . والخيل من حضرة الامام ومعها رسول يدعونا اليه . فنركب ونسير في ضوء القمر فننتعش ، ونحضر مجلس الامام فنستأنس ، ونواصل السعي في سبيل السلم . فالتضامن بين ثلاثة من ملوك العرب .

— المسئلة بيننا وبين الشريف (١) — الكلام لحضرة الامام — قريبة ميسرة . نحن اولاده ، نحترمه ونجله . ولكننا نطلب منه ان يبادلنا الاحترام . قال تعالى : وشاورهم في الامر ، امَّا ؟ ليسألنا ، ليشاورنا نعم ،هو لنا بمثابة الاب ونحن ابناؤه الراشدون . عندنا حكمة ،امَّا ، حكمة في الدين وفي السياسة.وعندنا قوة . القبائل في يدنا ... والله لا تمر اربعة اشهر علىالمعاهدة الا نكون اصلحنا الامر بينه وبين ابن سعود فتسير القوافـــل آمنة الى مكة والمدينة ... ان عند الشريف

(١) اي الملك حسين .

الحرمين ، ونحن نبذل انفسنا من اجل الحرمين . لا خير في حياة المسلم اذا كان لا يغار على الحرمين ويسعى دائماً في المحافظة عليها .

اغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود فقلت : اذا اصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد فهو ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم والامام يحيى . فيتم اذ ذاك الاتفاق الرباعي ، او المحالفة الرباعية ، وهي كما اظن حجر الزاوية في الوحدة العربية .

فقال سيادته : هـــذا كلام حق . ولكن الامر بيننا وبين ذاك الرجل (١) بعيد .

– وليس على الله يا مولانا امر عسير .

– نعم صدقت . وما نحن يا حضرة الاديب بعيدين مما تروم . ولكن ذاك الرجل أضرّ بنا والله ضرراً جسيماً . ونحن نفعناه . وكان نفعنا مجرداً عن كل ضرر وغش . امـــا نحن والملك حسين فقد كان الضرر والنفع بيننا منا ومنه . لذلك ترى الامر قريباً بيننا ... العرب خداعون غدارون .

كان يردد رحمه الله هذه الكلمة كل مرة يجيء فيها على ذكر هذا الرجل ، اي الامام يحيى ، في المقابلات الاولى . ولكنه عندما تحقق مقاصدي غير لهجته .

– نحن اول من حمل على الاتراك في الحرب الكبرى ، اول من انضم الى الاحلاف . اما هو فاتفق والترك وانسحب الى شهاره واقام هناك بعيداً عن ساحة القتال . ايُّ خير جاءنا نحن العرب من الترك ؟ اية منفعة نفعونا بها؟ نحن حاربناهم قبل الحرب، وحاربناهم اثناء الحرب، وسنحاربهم اذا عادوا الى بلادنا . نحن كنا نحاربهم في تهامه لنردهم عن

(١) اي الامام يحيى .

ابن حميد الدين . اوقفناهم مراراً في زحفهم عليه . دفعناهم عنه فراح يعقد واياهم صلحاً وراء ظهرنا . هذا في اثناء الحرب ، اما قبلها فكنا واياه متعاهدين . عقدنا محالفة لمحاربة الاتراك وطردهم من اليمن . ولما جاؤوا يمرون في بلادنا ليضربوه من جهة الشمال اوقفناهم وقلنا لهم: كيف نقبل وبيننا وبينه عهد الله . وصل الترك بعدئذ الى صنعاء فهموا بضربنا من وراء ، من الجبال ، فلم يمنعهم ابن حميد الدين ، حليفنا صنو عهدنا . كأن العهد عنده قصاصة من ورق .

وفي كتابين اطلعت عليهما الواحد من الامام يحيى الى السيد والثاني جوابه ما يزيد سياسة الرجلين بياناً ، وعقليتهما جلاء .(١)

في كتاب الامام الى «الصنو السيد العلامة» بعد السلام مقدمات ادارية في تاريخ المفاوضات ووسائطها (٢) ثم انه يرحب بسعي كل من يرجو الله في دفع الدسائس الاجنبية « وصون هذه القطعة العربية اي اليمن من تدخل الاجانب ، وعدوان يحدث من اي جانب » .

« واعلموا يقيناً ان ليس لنا غرض ولا مقصد في غير القيام بخدمة الله بالقلب واليد واللسان . ووالله لولا ان نرى تحتم القيام علينا بالدفاع عن عادية الكافرين على هذه الاصقاع لما حركنا ساكناً ، ولما اظهرنا كامناً . ونصرح لكم بانه مع ما بينكم وبين الدول من الروابط والسلم بما لهم من المقاصد الضارة بالاسلام والمسلمين وما

(١) بعد دخول الانكليز الحديدة وخروجهم منها واستلام الادريسي زمامها سعى بعض رجال الامامين في عقد الصلح بينهما . وقد ذكر الامام يحيى اسماء ثلاثة من رسل السلم والوفاق .

(٢) تاريخ الكتاب ٢٥ جمادي الثاني سنة ١٣٣٩ والاشارة الادارية فيه هي : بعد وصول نقيب حسن بن مقبل واتفاقه ( اجتماعه ) بالقاضي عبدالله الفخري واطلاعهما على ما بيد شرفي والعرض علينا..

يرومون من التسلط العام والسيطرة الشاملة على كل من قعد وقام ، وبانهم لا يدفعون الاموال والذخائر الا مقابل غرض عظيم يعدون الاستفادة منه لدولتهم وملتهم . ولم يحملهم على اظهار عدواننا الا عدم المساعدة منا لهم في بعض البلاد اليمنية . ولولا ذلك لما كان بيننا وبينهم ما كان وما سيكون . قد انصفتم بما اوضحتموه لشرفي من القيام بالعدد والنحر والتشمير لدفاعهم ومنعهم وحربهم في البر والبحر [1] وذلك هو الغرض المقصود . ولكن بقي امر وهو هل لهم من حجة يحتجون بها ويجعلونها ذريعة لهم الى مقصدهم الخبيث من ادعاء الحق في اي جانب لهم من اليمن . وهل لكم من فكاك من تلك الرابطة تزول به كل وسيلة لهم الى اي تجاوز . المؤمل من صداقتكم مع كتابنا هذا ان لا تكتمونا شيئاً . فانه لا مخبأ بعد بوس ولا عطر بعد عروس . وانتم اعرف بسياسة الدول ومسالكها الى الوصول الى اغراضها بما تبرمه من متلونات الحيل . وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه للنظر في ما يعز الاسلام والمسلمين ويدفع كيد وضرر الكافرين ».

وختام الكتاب انتحاب مجد الاسلام الغابر ، واستنهاض المسلمين على جهاد الكفار الذين « تسلطوا بانواع التسلطات الخبيثة على المسلمين

---

(١) اي الانكليز . وفي هذه الجملة اختلاف على ما قيل لي وقصد سيء . لان شرفي لم ينطق بهذا الكلام او بمثله ولا السيد الادريسي ولا احد خاصته . من اين للادريسي ان يحارب الانكليز براً وبحراً . فضلا عن انه كان يومئذ صديقهم وحليفهم . اما القصد منها فظاهر . وقد كان الادريسي يخشى تقرب الانكليز من الامام كما كان الامام يسعى ليبعد بين السيد والانكليز .

فصاروا لا يملكون مستقلين قياد انفسهم . ولكنها الاهواء عمت فأعمت ، ولو عقل المسلمون وعملوا بما امر الله به الخ . »

اما جواب السيد محمد بن ادريس الى « الجناب الشريف والمقام المنيف الصنو العلامة الامام يحيي بن حميد الدين » فبعد حمد الله والسلام يعلمه بوصول كتابه مع النقيب الشرفي ويؤكد له ان بغيته المقصودة وضالته المنشودة « ان نرى انفسنا على محكم الاخاء والوفاق مع جميع الامة فرداً فرداً . فضلاً عمن هو مثلكم ممن ضمنا وضمه رحم العلم والنسب »[١] .

« ولو نظرنا الى ما جرى من الحوادث، حتى كاد لم يكن هناك رحم توصل ونفوس بين يدي الله عما تفعل تُسأل ، فدعا الاخ اخاه الى حكم السيف والسنان ، بل كر عليه بما هو انكر من وخزات القلم واللسان ، لطال الشرح وتمادي الحال . ولكن حيث اوجب تعالى على الكافة ان يكونوا اخواناً ، وفي الحق اعواناً ، فلا مخلص لنا ولكم لدى الباري من الحجة ، الا ان نسلك واضح طريق هذه الحجة ... اما ما اشرتم اليه في ما بيننا وبين الاجانب فلو راجعتم التاريخ بالنظر لما قد مضى بيننا وبين الطليان وقد أمددنا بما علمتم ثم وقع الصلح بينهم وبين الترك فانكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة[٢] . بل ظهر للعموم ما اجراه الله على يدنا من

---

(١) اما العلم فلا مشاحة ان السيد محمد كان صنو الامام بالعلوم الاسلامية والفقه واللغة . واما النسب فقد طعن الزيود به طعناً يثبت ما قلته في التسرّي واختلاط دم السود بدم الاشراف في فصل سابق .

(٢) « انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة» عندما تعاهد وايطاليا اتهم بدسيسة يراد منها ادخال الأجانب الى البلاد العربية . قالوا هذا اجنبي - والزيود

الخبر المعلوم لاتضحت لكم الحقيقة الحاضرة وعرفتم المثل السائر : ما اشبه الليلة بالبارحة . وفي الجملة ما حالنا وحال اهـــل اليمن الا كما قال حجة الاسلام :

غزلت لهم غزلاً دقيقا فلم اجل لغزلي نساجاً ........

ان الله تبارك وتعالى اذا فتح باباً للخير فلا راد لفضله . وامـا ما طلبتم البيان فيه عن اليمن ومـا ترمي اليه السياسة الاجنبية فمن المعلوم انها لما قامت الحرب الاوروبية اعلنت دولة بريطانيا مساعدة العرب اذا ارادوا الاستقلال دون ان تتدخل في شيء من شؤونهم . ولكن من الاسف انهم على اراء متفرقة واهـواء مختلفة . ومرت هذه الفرصة وكادت تمر ولم يرفعوا اليها رأساً ... على مـا نشهده الآن في الاختلاف وعدم الانتباه ، لمـا يرفع شأنهم دينا وسياسة . اثبتوا على انفسهم عدم الرشد فاحتقرتهم اعـــين العالم وصاروا عرضة لانحطاط قوميتهم من بين سائر الامم . فلا حول ولا ... ومثلكم على وفور من العلم والسياسة ، وبمحل من المعالي والرئاسة ، فلا يخفى عليكم كيف يكون لم شعث هذه الامة ، وما هو الاقوم عند الله طريقةً في زوال هذه الغمة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .»

في ١٥ شعبان سنة ١٣٣٩ .

..........

تابع شرح صفحة ٣٥٠

يحسبون الادارسة دخلاء في اليمن ـ ويتواطأ والاجانب علينا . فكان انه اخذ مال الأجانب وسلاحهم واستخدمها في محاربة اعدائه الاتراك . اما الايطاليون . وهم في الشاطىء الافريقي من البحر الاحمر قبالة الادريسي ، فلم يطأوا ارض تهامة ، ولا اثر لنفوذهم هناك اليوم . ثم اتهم التهمة نفسها عندما دخل الانكليز الحديدة ، وما عتموا ان خرجوا منها .

في هذين الكتابين يتضح امران ، الاول : ان دعوة الامام يحيى دينية ظاهراً وسياسية ضمناً ، ودعوة السيد الادريسي دينية اساساً وسياسية قومية عملاً . الثاني : في كتاب امام صنعاء غموض مقصود وعموميات قلما تفيد، وفي كتاب امام جيزان صراحة مبرورة وتخصيص ليس فيه ابهام .

## المعاهدة

الصلة بين الضعيف والقوي – النفع السوي المتبادل – سياسة الانكليز بعد الحرب – السلاح والمال – السياسة الجديدة ، لا مشاهرات ، ولا دسائس ، ولا تجسس ، ولا ارهاب – الامتيازات الاقتصادية – البحث في المعاهدة – نقطة خلاف تختص بالانكليز – حجة السيد وحجتي – رغبتي في خدمة الملك حسين – نص المعاهدة وشرح بعض بنودها .

من طبع الضعيف وان كان مستقلاً ان يوالي الغني ويستنصر في اموره القوي . ومن مظاهر القوة ان الضعيف في مكانه وبيئته هو غالباً اقوى منها في غير مكانها وبيئتها . فالقوة وفيها الحكمة تستعين بمثل هذا الضعيف فيقوى بها وتنتفع به . وما دام الانتفاع متبادلاً متساوياً ، وهو لا يكون كذلك الا اذا كان في الفريقين شيء من الوجدان ، فالولاء بينهما امر طبيعي . اما اذا اختل التوازن في المنفعة ومالت كفة الميزان فهناك السيادة الفاسدة ، اجنبية كانت ام وطنية ، من القوي كانت ام من الضعيف . هناك الاستيلاء والاغتصاب والظلم والاستبداد . فالقوي القليل الوجدان يستخدم الضعيف لمنفعته الخاصة فقط ، يضمه اليه فيبتلعه او يستعبده . والضعيف ، الضعيف الوجدان ، يخادع القوي وينافق فيكسب بعض القوة التي يسيء استخدامها ، فلا ينفع نفسه نفعاً يذكر ولا ينفع احداً من الناس . هذه حقائق في الحياة تنطبق على ما تماثلها في السياسة وفي الملك .

كان السيد الادريسي يدرك امرين في حياته جوهريين ، اولهما

انه قوي في ذاته ، وثانيهما ان ملك الادريسي ضعيف بين اقوياء هم اعداؤه . بديهي اذن انه ، وهو الطموح الحكيم ، اذا عرف قوياً يروم الولاء والاه واستنصره على الاعداء . وكذلك كان . جاء القوي عدو الاتراك — ايطاليا ثم بريطانيا — والمرء في ايام الحرب ابعد عن المخاتلة والخداع منه في ايام السلم ، فنفع الادريسي وانتفع به . ها هنا قوة وضعت فيها حكمة ووجدان ، وفي اتحادهما نفع سوي متبادل .

اما بعد الحرب فانقلبت الحال وساءت الاعمال . امست حليفة السيد ولا قصد لها ظاهراً في بلاد العرب غير نفوذ تمده الى مقامات السيادة ، لغرض مجهول كثر المتكهنون به وقل المدركون ، دون ان تبذل شيئاً مما كانت تبذله اثناء الحرب . زد على ذلك انه كان لها في الحرب عدو حقيقي معروف ، وليس لها الآن غير اعداء سياسيين . فاستمرت على سياسة الغموض توالي هذا الامير علناً وتفاوض عدوه سراً حتى ساء حالها ، وساءت اعمال رجالها .

وبودي ان يعود الفريقان ، البريطانيون واصدقاؤهم العرب ، الى شيء طبيعي عادل في العلائق السياسية والولائية تكون الفائدة فيه متبادلة متساوية . الا ان ذلك لا يكون الا بالسياسة العربية القومية الصريحة من قبل الانكليز ، وبالصدق والنزاهة والاقبال على الحسن من التمدن الاوروبي من قبل العرب . كانت بريطانيا تقدم في الماضي السلاح والذخيرة وتدفع الاموال فتسيطر بوساطتها على الرجال ، فانتفعت منفعة محلية وقتية ، وما كسبت بوجه الاجمال من العرب غير المقت والاحتقار . ولعمري انها في ما كسبت غير مظلومة . فقد افسدت اموالها الامراء واهلكت بسلاحها العشائر ، وهي لا

تزال تسعى في نفوذها وتثبيت سيادتها في البلاد العربية على تلك الطريقة القديمة . وهذا لا يكون بعد كل ما تغير وساء من الاحوال . فالسيد الادريسي نفسه لم يذعن لمثلها الاذعان التام حتى يوم كان يقبض مالها ويسلح العشائر بسلاحها . وكثيراً ما كان يردهم في ما يقترحون خائبين « لم يربط الانكليز احد مثلي ، انا رقّصت الانكليز » . سمعته يردد هذه الكلمات مراراً في حضور وكيل بريطانيا السياسي صديقي محمد فضل الدين . ومهما كان من زعمه فلا احد ينكر ان السيد كان عربياً حراً صميماً يأبى التسيطر الاجنبي كما يأباه غيره من ملوك العرب الكبار ، الا انه لا يرى الضرر والكفر في موالاة اجنبي ينتفع به . اما الانتفاع اثناء الحرب فعرفناه . فماذا عسى ان يكون في ايام السلم ؟

حبذا دوام العلائق الودية بين امراء العرب وبريطانيا . ولكنها لا تدوم كما قلت على الطريقة القديمة . لا ولاء متبادل ولا اكرام حقيقي مع التذبذب والتجسس ، والدسائس والارهاب . ان الحكمة كل الحكمة والخير كل الخير للفريقين في خطة جديدة مجردة عن السياسة وحب السيادة التي لا طائل تحتها . واذا كان لا بد من السياسة الى حين فحبذا فيها تلك الصراحة البعيدة عن الـ « لا » والـ « نعم » معاً ، وعن الختل والخداع .

اني لا ارى في هذا الزمان غير التجارة والاقتصاديات والعلم سبلاً قوية الى الولاء الاكيد بين الامم وفيه النفع المتبادل الدائم . اننا نتاجر معكم ، ونمنحكم الامتيازات ، ونأذن لكم ببناء المستشفيات مثلاً والمعاهد العلمية ، ونؤمّن لكم فوق ذلك طريق الهند من البحر الاحمر ومن الخليج ونحافظ عليها ، فتمدونا في مقابل ذلك بالمساعدات

الثقافية والسياسية والمالية التي من شأنها ترقية البلاد وتعميرها واحياء موارد الرزق والثروة فيها ، وتعفونا من الوكيل السياسي والمعتمد والمندوب تستبدلون القناصل بهم ، فتستقيم العلائق بيننا وتصفو موارد الثقة والوداد (١) .

هذا ما اشرت به شفاهاً واشير به كتابة على الدوام ، وقد كان السيد الادريسي من رأيي فلما وصلنا ونحن نبحث ذات ليلة في المعاهدة بينه وبين الملك حسين الى بند يحدد علاقة الامير العربي بدولة اجنبية قال : ولا بأس من ذكر بريطانيا في المعاهدة ، بل يجب ذكرها . فقلت : وان كنت من رأي سيادتكم في تفضيل بريطانيا على سواها من الدول الاوروبية فلا استحسن ذكر اسمها في المعاهدة بينكم وبين جلالة الملك حسين . ولم اكتم السبب في ما دعاني الى مخالفته ، بل صرحت برأيي ، وكان فضل الدين حاضراً الجلسات كلها ، دفاعاً عن القضية العربية والقصد الاكبر فيها ، وهو تآلف ملوك العرب وتحالفهم في سبيلها . فقد كان الملك حسين ناقماً يومئذ على بريطانيا ، وكان الامام يحيى حرباً عليها ، وانا ابغي عقد معاهدة بينهما وبين الادريسي ، فكيف السبيل الى ذلك وأحد الثلاثة يقيد نفسه ببريطانيا ويسجل في بند من بنود المعاهدة تفضيله اياها على سواها من الدول الاوروبية . فقلت مصراً :

خير لكم يا مولاي ولبريطانيا ان لا نذكرها في المعاهدة . واني

---

(١) في معاهدة جدة التي عقدت في ٢٠ ايار سنة ١٩٢٧ بين ملك بريطانيا وملك نجد والحجاز برهان ساطع على ان الحكومة البريطانية بدأت تعمل بهذه السياسة الجديدة السديدة التي تشترك فيها المصالح العربية البريطانية وتتساوى فيها الحقوق والواجبات .

لا ارى ما يوجب ذكرها هنـا خصوصاً في معاهدة بينكم وبين امير عربي آخر .

كنت أفكر بالملك حسين الذي رغبت في خدمته خدمـة تقرب امراء العرب منه وتربطهم بالمعاهدات واياه ، خدمة تفيـده اكثر من ارساله الوفود الى لندن وجنيف . وكانت هذه الرغبة تشير عما افعل واقول . ولم يكن الامام يحيى ولا الادريسي مغبوناً في عمل مجرد عن الاغراض السياسية والذاتية كلها . فخفت ان يفسده ذكر بريطانيا ، فيرفض الملك ان يوقع المعاهدة بسببها وينكر الامام كذلك مساعي الملـك في سبيل الصلح بينه وبين الادريسي . لذلك دافعت عن نظريتي بحجة ويقين . ودافع السيد عن نظريته لا اعتقاداً فقط على ما اظن ، بل رغبة بالمحافظة على صداقة الانكليز. فلما خرجنا من المجلس تلك الليلة هنأني فضل الدين وقال : قد نلت من السيد ما لم ينله احد قبلك .

جاءت المعاهدة وليس فيها ذكر لبريطانيا ولا كلمة تشير اليهـا . وكان البريطانيون مع ذلك راضين بها . مما دل على ان بريطانيا لا تعارض في عقد معاهدات ودية اقتصادية — دفاعية كذلك — بين امراء العرب اذا وُفق الامراء الى من يسعى في هذا السبيل سعياً فيه نزاهة ووطنية حقة ، ثم شيء من الاعتدال والانصاف .

وها اني اثبت من هذه المعاهدة ما يختلف في موادها عن المعاهدة بين الملك حسين والامام يحيي .

التمهيد واحد في المعاهدتين .

المادة الاولى : البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلاميـة لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة

الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال اماراتها الموجودة وتحويل امرائها وحكامها المشهورين المعلومين الذين يتولون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها . وانما المطلوب اجتماع الكلمة القومية[١] وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير تدخل اجنبي يخل باستقلال البلاد العربية[٢] على ما سيعرف من المواد الآتية .

المادة الثانية : يعترف جلالة الملك للسيد الامام الادريسي بالامامة ويعترف سيادة الامام لجلالة الملك بالملك[٣] .

المادة الثالثة : يختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز وغيره داخلية وخارجية . ويختص سيادة الامام الادريسي بادارة بلاده الداخلية والخارجية . وليس لاحدهما ان يعقد معاهدة اجنبية في ما يتعلق بادارة الثاني من البلاد ، ولا ان يغير شيئاً جارياً من طرف صاحب ادارتها ، ولا ان يتدخل بادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة[٤] الا بعد المشاورة والاتفاق بينهما . واذا

---

( ١ ) قبل السيد محمد بالنص الذي قدمته وهو : وانما المطلوب اجتماع الكلمة القومية ، راجع شرح هذه المادة في معاهدة الامام يحيى .

( ٢ ) راجع الشرح في معاهدة الامام يحيى .

( ٣ ) كان قد اعترض الدكتور فضل الدين على هـــذه المادة لان المادة الثالثة تفي بالغرض المطلوب فقبل السيد اعتراضه . ثم جاءني منه مع نسختين من المعاهدة هـذه الرسالة: بعد اهدائكم التحية الزاهرة . صدرت نسختان احداهما بدون مـــادة الاعتراف بالامامة والملك حسبما اعترض جناب الحكيم البارحة لاننا نظرنا لذلك بعدئذ معنى صحيحاً . وفي الاخرى تلك المادة فلكم الخيار في اية النسختين اردتم .

( ٤ ) كان قد اصر الامامان بالوقوف عند هذا الحد فاقنعتهما باضافة الجملة الشرعية

فعل احدهما شيئاً من ذلك او عند مقاولة اجنبية في ما يتعلق ببلاد الآخر منفرداً فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه . وليس لاحدهما نقض مقاولة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الآخر في ما يتعلق بخاصية عاقدها وبلاده ، ولا تعتبر في بلاد الثاني الا اذا تمّ الاتفاق على ذلك . ويلزم على هذه المـــادة فصل الحدود بين الفريقين على الوجه المعتدل حتى يصلح كل فريق الجهة التي اليه ويعد بها المعدات اللازمة وقت الحاجة للطرفين [١] ولو كانت جرت المذاكرات بالوفاق مثل ما جرت الآن قبل سنة تقريباً لتمكن الجميع من اجتياز الحدود المعتدلة وما يترتب عليها من الفوائد المشروحة اعلاه . حيث كان لا حائل بين الجوارين ولا منازع آخر بينهما . اما الان بالنسبه للحدود فيكفي حصول التزام ثابت من جلالة الملك حسين بعدم الاعتراض في مسئلة لواء عسير على فرض ارتفاع المنازع الاخر منه بالكلية [٢] او ارضائه بجزء لا يحول بيننا وبين جلالة الملك حسين في الجوار . وهذا يقتضي ان نقوم بسعي الاصلاح بينه وبين السلطان عبد العزيز

---

تابع شرح صفحة ٣٥٨

بعدها اي « بعد المشاورة والاتفاق بينهما » الى آخر الجملة اي «فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه » والغرض منها تقييدهم في ما يمهد السبيل الى الوحدة العربية .

(١) ما يلي اي من « ولو كانت جرت المذاكرة » الى آخر المـــادة ، اضافها السيد محمد . فارتأيت ان تضمّن في كتاب خصوصي الى جلالة الملك لانها جملةشرحية لا اساسية ، فلم يستحسن رأيي وأمر ان تكون جزءاً من هـذه المادة . وفي ذلك دليل آخر على سلامة نية السيد وتساهله رحمه الله .

(٢) يراد بهذا المنازع ابن سعود سلطان نجد وهو محتل مدينـة ابها التي كانت قاعدة لواء عسير في الماضي.

ابن سعود [1] لاجل تمييز حدود معتدلة بين الأطراف الثلاثة .

المادة الرابعة : الاتفاق على مدافعة من اراد الاعتداء على احد الطرفين. وهذا حق المسلم على المسلم . والكل منا يبحث في تلك الحادثة والسعي فيها بما أمكن من الاصلاح سواء كان مما يرجع الى الخارج أو المعارض في الداخل . فاذا لم يكن إلا مجرد الاعتداء والبغي فيلزم كل من الفريقين المناصرة لصاحبه . ويلزم الامداد بقدر ما أمكن من مال أو رجال أو سلاح أو معدات حربية وعلى طالب المدد ان يقوم بلوازم المطلوبين [2] .

المادة الخامسة : اذا وقع تشاجر بين رعايا الفريقين يرد الى حكم الشرع فينصب قاضيان من الجهتين او قاض من احداهما حسب التراضي لفصل المادة .

المادة السادسة : الاتفاق في العمل الذي يحفظ القطرين من أي تدخل أجنبي . فاذا حدثت مسئلة مهمة كالعقود والمعاهدات يلزم كل من الطرفين أخذ رأي الطرف الاخر حتى يؤمن من الالتباس في الموضوع ويكون العمل بقوله تعالى : وأمرهم شورى بينهم . وقوله عز وجل : شاورهم في الامر .

المادة السابعة : تبادل المنافع التجارية من الطرفين مع تسهيل أمور الصادر

---

(١) ولا شك ان السيد الادريسي كان قد فاز بسعيه هذا الشريف لما كان بينه وبين سلطان نجد من الثقة والولاء .

(٢) في هذه المادة الدفاعية نقض مادة الهجوم اي المادة السادسة من معاهدة الامام يحيى والقصد منها كف يد حكام الشطر الغربي من الجزيرة بعضهم عن بعض .

والوارد والمحافظة على اطمئنانها .

المادة الثامنة : التي تختص بصندوق توفير من مال الزكاة هي مثل المادة العاشرة في معاهدة الامام يحيى والمادة التاسعة التي تختص بتعيين مندوبين من قبل الفريقين هي مثل المادة الثامنة والمادة العاشرة اي الاخيرة هي مثل المادة الاخيرة كذلك في معاهدة الامام .

# جوار وسادات

نائب ابليس في عاصمة ابن ادريس – اخبار العاصمة – الجارية المجرمة والسيد العادل والقاضي الذي نبتت في قلبه ريحانة الرحمة – ابو فراخ – الدنقليات الحسان – وفد ابن سعود – المناقشة بين الوهابيين وعلماء شنقيط – « لا تشغلوها يا ابناء نجد » – السيد الحضرمي – فصل الشحاذة عند السادة – الاتراك يعتقون الجواري والعبيد – السيارة تسير – شجر الشورى – مظهر من مظاهر المد – سيد من الاماجد – ميدي – سوق الرقيق – « يلزمنا جارية للاستاذ » – سنبوك الجواري المنتظر – سيد من غير الاماجد – ضللنا الطريق في الليل – اللجنة – السراب – الصليف – معادن الملح – القطن – اخر غرقاتنا في الرمل – السائق اصيب بدوار – السيد الحضرمي يقرأ الفاتحة – النجدة من القرية – بنت الجن .

وقف الحاجب في الباب يقول : الحاج محمد . فنهض فضل الدين واستوى جالساً على الديوان . ومن هو الحاج محمد ? هو في عاصمة ابن ادريس نائب ابليس . درويش وجريدة اخبار وحجـــام ، وطبيب يطبب العيون ، ويتاجر بالدر المكنون ، ويمارس كل الفنون . هو من مراكش ، جاء مثل كثيرين من اخوانه الى بلاد السيِّد حاجاً ، وبقي فيها ينتقل مع الامام فيعيش في ظله المغذي الروح والجسد معاً والحاج محمد جبار يكسِّر بيده الحجارة . صافحته مرة واحدة وصرت بعدئذ اكتفي بالسلام من بعد عشرة اقدام . اعجب بتلك اليد ، يد ولا مخالب البهبوت ، كل اصبع منها نبوت ، وهي مع ذلك يد ساحر ، يمدها الى أدق اعضاء الجسم البشري الى العـــين فيشفيها – بشهادة الدكتور فضل الدين – من الالام . يقبض السكين ، وبغيرها وغير الله

لا يستعين . وما فشل مرة في عملية من العمليات ، ولا عصته العيون والحدقات .

لكن ذلك لا يؤهـــله لاكرام فضل الدين الذي كان يستقبله ولا يستقبل غيره في النهار . دخل يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، فجلس على الارض ، طوى نفسه على السجادة امامنا ، وبدأ باسم الله .

— سار الـ « موتر » الى صبيا منذ ايام وعاد اليوم كاملاً بكل اجزائه والحمد لله . وحضرة القاضي فيه سالماً متعافياً باذن الله . وقد وفق بين السيد .... وجارية من جواريه جاءت تشكوه الى مولانا ولدت هذه الجارية ابنة فلم تعش يومـــاً كاملاً . فعول السيد على بيع الجارية فاحتجت معتصمة بالشرع والحق في جانبها لانهـــا ، وقد ولدت له ولداً ، اصبحت زوجة شرعية . ولكن السيد يقول : هي جارية نحس ، جارية جانية . لو انها ولدت ابنة حية لما استحقت ان ارفعها الى مقام الزوجة فكيف وهي تجيئني بالاموات . جانية تستحق فوق البيع الذبح . ولكني ارحمها وابيعها فقط . فقال القاضي ، وقد نبتت في قلبه ريحانة الرحمة : بمثلك وانت من اهل البيت يليق العدل ويليق الحنــان . فقد قال صلى الله عليه وسلم . قال : نسيت يا دقتور الحديث . ولكن القاضي اقنع السيد فدخلت التقوى والحنان الى قلبه . فقاطعه فضل الدين قائلاً نار الجحيم في قلبه . فقال الحاج : ولكنه رحمها يا دقتور . قال لها : سأشرفك ببذرتي مرة اخرى فاذا جئتني بولد ذكر حي كان لك ما تريدين . والا اتبعتك بابنتك . فقبّلي يد القاضي ، وركبته ، ورجله ، واشكري الله على مجيئه . وجيزان تشكر الله على عودته سالماً في الـ « موتر » .

رفع الحاج محمد رأسه ومسح بطرف قميصه العرق من جبينه ثم

طوى نفسه ثلاث طيات — اليتيه على كعبيه وصدره على ركبتيه—ومد عنقه نحو فضل الدين وهمس قائلاً سيدخل عم مولانا الامام على فتاة اخرى. ابو فراخ يبغي شراء فرخة سوداء وراح امس يستأذن صهره. وراحت المسكينة الى الامام تبكي وتستغيث. فقال الامام الى عمه الشائب : لا اسمح لك بها الا اذا كتبت كتابك عليها. اخذتُ ابنتك بالكتاب والسنة فكيف احلّ لك ما لا أحله لنفسي. فقبل ابو فراخ بذلك وسيدخل هذه الليلة على الفرخة الدنقلية .. لا والله ما رأيتها ولكني سمعتهم يقولون انها اجمل ما جاء من وراء البحر. درة سوداء.

ورفع الحاج رأسه وصعّد الزفرات ثم قال: والسيد .... عافاه الله وحجب عليه. جاءته احدى جواريه بولد . . . ابعد الله الدنقليات عن بيت سادتنا. فرخة سوداء، رأس البلاء، في كنف ادريس. الادارسة يا دقتور يذبحون انفسهم ولا يذبحون سود الفراخ.

ضحك الدكتور وأمر له بالقهوة فشرب الحاج ومسح بقميصه العرق من جبينه ووجهه واستأنف الحديث :

— سيرجع غداً وفد ابن سعود. اعطى مولانا كل واحد منهم كيساً وكسوة. وقد كانوا ليلة البارحة في المجلس الشريف فتناقشوا وعلماء شنقيط في التوحيد والاولياء. خفت والله على الشناقطة من هؤلاء الوهابيين. تذكر الرجل الذي ذبح ابنه في ابها لانه افترى على زوجة ابيه وفرّ هارباً الى صبيا، فقبض عليه فيها وسجن بأمر من الامام. جاء كتاب من عامل ابها يقول فيه : ارسلوا الجاني الينا. انتم لا تحسنون القصاص. شرائعكم لا تنفع. عندكم محاكم وتأجيلات وتعويضات ورشوات. أحيلوه علينا عندنا السيف. وامس قال احد هؤلاء الوهابيين : لا يطهر الاسلام من الشرك الا السيف. وهو حجتهم

الوحيدة . من يصلي الى العظام في القبور ويستغيث بالاشجار والحجارة يشرك بالله ، يكفر بالله ، والكافر يقتل . فرد عليه احد علمائنا بقوله : وانتم تستغيثون بالنبي ، انتم كذلك مشركون . فقال الوهابي : نذكر النبي اجلالاً ولا نستغيث به ابداً . فقال عالمنـــا : الذكر والاجلال يتضمنان الاقتداء ، والاقتداء هو ضمناً النداء ، وفي النداء الاستغاثة . فقال الوهابي : هذا ابهام وكفر الابهام اشد من الكفر الصريح. دامت المناقشة ساعتين فدخل اذ ذاك مولانا فقال :لاتشغلوها يا ابناء نجد . وجادلهم بالتي هي احسن . ثم قال والانكليز مشركون ليس علينا ان نهديكم الى الدين الحنيف ... من آمن بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ( الآية ) ونحن اصدقاء الانكليز . نخلص لهم ما داموا مخلصين لنا ، وانتم في نجد كذلك ان الله يهدي من يشاء . هذا ما قاله مولانا الامام . وقف الحاج محمد هنيهة وقد عمد الى طرف قميصه فأمرّها اولاً وثانيـــاً على جبينه ثم دنا من فضل الدين هامساً : سنبوك جوارٍ يصل الى ميدي بعد يومين . ثم مال بوجهه اليَّ وقال : السيد الحضرمي يسلم عليك .

كنت قد نسيت رفيقنا في الباخرة . وها ان الحاج محمد يثبت ما قاله فضل الدين — قرأ السيد قصيدة في مجلس الامام يمدحه فيها فأمر له مولانا بمئة ليرة ، وهو عائد معكم في الـ « موتر » الى الحديدة .

وثب فضل الدين لهذا الخبر عن الديوان مستعيذاً بالله . ثم دعاني وهو واقف امام الشباك لأشاهد ما شاهد في ذاك الحـــين فرأيت في الرواق الخادم أبكر — السيد أبكر — وحوله بعض ابناء قريته جاؤوا يسلمون عليه ويقبلون يديه — هذا سيد . ولكنه خادم مخلص لا بأس اذا قبّل يده ابناء بلده . ولكن في السادة الشحاذ واللص والزاني

والقاتل والمتاجر بالرقيق . والناس يقبلون ايديهم وركابهم . ان مراوغة[1] مدينة السادة ، كلها سادات وفيها من كل من ذكرت . ينزل السيد الى السوق حاملاً السلة فيملأها مما يحتاج اليه من خضر وحبوب ولحم وحلوى ، دون ان يدفع غرشاً واحداً . ولا احد يقول: لا، ولا احد يجرأ ان يمنع رزقه عن السادات . وفي اشهر رجب ورمضان وشوال يخرج السادة يشحذون ، هذا فصل الشحاذة عند السادة . جاء في الكتاب : وأنذر عشيرتك الاقربين ، فمن ينذرها اليوم ؟ عادات وقباحات يبرأ منها الاسلام . اذا تزوج السيد بنتاً من غير آل البيت وولدت له ابنا فمن الواجب عليها ان تقبل يده وركبته ورجله كل يوم لانه سيد ولانها من عامة الناس . وابنها يحتقرها، ينظر اليها نظر السيد الى العبد . مثل آخر: سيد عنده جارية وخادم متزوج بامرأة حرة . فزوجة الخادم تحتقر جارية السيد ولا تحترمها ولو صارت اماً وزوجة شرعية . وكثيراً ما يحدث في مثل هذه الحال ان السيد يبيع الجارية الى خادمه ويكرهه على طلاق زوجته فيتزوج بها . فساد لا يطهره غير الجحيم ... من فضل الاتراك انهم كانوا يعتقون الجواري والعبيد ويعطونهم شهادات العتق . وكان السادة يوم كان الترك في البلاد يعتبرون هذه الشهادات . اما الآن فلا قيمة لها ... ولا تظن ان سادات حضرموت ارقى من سادات اليمن . هذا واحد منهم عرفناه رفيقاً وسيرافقنا مرة اخرى اعوذ برب الفلق .

ولكننا علمنا بعدئذ ان حضرة السيد سبقنا الى ميدي وسيرافقنا من هناك . فقال فضل الدين : والحمد لله الذي دفع عنا بعض البلية . ركبنا السيارة صباحاً يصحبنا جندي من جنود الامام ، وهو سيد من سادات

(١) مراوغة على مسافة عشرين ميلاً شرقاً من الحديدة .

اليمن الاعلى يناهز الستين عمراً ، دقيق الانف والفم واليدين ، حليق الشارب ، ابيض اللحية ، بهي الطلعة ، لطيف المحيا . جلس بعد ان سلم الى جنب السائق ، وبندقيته بين يديه فسرنا نبغي ميدي التي هي على مسيرة ستين ميلاً من جيزان . وكان السهل الذي رحنا « نموتر » فيه كبلاد حرب كله درب . مررنا بملاحة هي للحكومة قرب قرية تدعى مضايه . ولم يكن في الارض حولنا ما يريح النظر من السبخات غير شجر الشورى الذي كانت صفوفه تمتد اميالاً الى جانب الشاطىء كأنها جدار اخضر قائم بين البحر والسهل . اما عود هـــذا الشجر فابيض والمتكسر منه شبيه بالعظام يجمعه العرب حطباً . واما الورق الشبيه بورق الغار فيرعاه الغزلان . كنا نرى اسراباً منها عادية ، شاردة ، نافرة من كل ما تحرك في تلك الارض سواها .

وفي تهامة مظهر من مظاهر المد غريب . ان مياه البحر تجري تحت الارض ، خلال شقوق في التربة رملية ، فتتسرب الى مسافة خمسة اميال في بعض الاماكن ، وتظهر فوراً في السهل بحيرات مالحة ، تجف في الصيف مياهها فتبدو سبخات موحلة لزجة اذا علقت السيارة فيهـــا استحال على غير الجمال جرّها منها .

عجبت لسكوت السيد قدامي وتأدبه . سألته سؤالاً فأدار بوجهه واجاب بصوت لطيف ولغة فصيحة انه من عرب حاشد ، من الحوارث فيهم ، وان جبال حاشد هي كالحلقة حولهم . نعم ، هو زيدي ولكنه منذ عشر سنين « في خدمة الامام » اي الادريسي . بعـــد ان اجاب سؤالي امال وجهه وسكت . اعجبني من الرجل محاسن ثلاث فيـــه ظاهرة — حسن طلعته ، وحسن منطقه ، وحسن ادبه . وهو سيد زيدي بل هو سيد من الاماجد ، شريف حتى اطراف انامله كما يقول

الانكليز . وفيه برهان جلي على ان في التعميم ضلالاً. اجل،ان في السادة كما في طبقات الناس كلهـــا ثلاثة رجال ، الشريف طبعاً ، والشريف وراثة ، والذي لا شرف له .

وصلنا الى ميدي التي هي على مسيرة ساعتين في السيارة من جيزان قبل ان يشتد حر الشمس،فاقمنا فيها يوماً نستطلع احوالها ونستكشف اسرارها . اما الاسرار فهي والحريم في بيوت القش الهرميـــة ، واما الاحوال فاول ما يظهر منها اناس اكثرهم من السود والمولدين يزدحمون في اسواق تباريهم فيها الروائح والاقذار .

ولكن للاشغال، للصناعة والتجارة، اثراً باهراً فيها لا تجد مثله حتى في الحديدة . ذلك لان ميدي اليوم هي كجيزان في اثنـــاء الحرب العظمى ، وقد كانت المدينة الوحيدة على شاطىء البحر الاحمر الغربي المفتوحة للبواخر والتجارة فتسير منها الى العقبة ، عقبة اليمن ، فجبال عسير ، وفي السهول شمالاً الى جدة . اما تجارة ميدي فاكثرها بالسلاح وبالرقيق وبالتهريب . اذا احتاج امام صنعاء مثلًا الى الذخيرة والبنادق يشتريها في ميدي او يطلبها لترسل عن طريق ميدي . واذا اراد احد تجار الحجاز ان يهرب بضاعته فلا يدفع عليها رسوم الجمرك يستجلبها الى ميدي ، ومنها براً الى جدة . واذا اراد احد السادة شراء جارية حسناء يجيء الى ميدي فلا تضل خطاه ومناه . وانك لتجد فيها اللؤلؤ ودهن السمسم الذي يعصرونه بين حجارة تديرها الجمال ، والبنيّات السافرات اللواتي ينفرن من آلة التصوير نفور الغزلان . ولا غرو وشهرة ميدي هي في المحرم الممنوع ، اي في الرقيق والسلاح ، وسهام الملاح .

ان الدكتور فضل الدين بصفته الرسمية والخصوصية هو رقيب المتاجرين بالرقيق وعدوهم الالد ، اخبره الحاج محمد المغربي بان سنبوكاً

عن الجواري يصل قريبـاً الى ميدي فباشر عنـد وصوله البحث والاستقراء . جاء احد « اصدقائه » من تجـار الرقيق مسلماً . فسأله كيف السوق ؟ فقال : واقفة يا حكيم .

ــ يلزمنا جارية للاستاذ .

ــ غرضك يا حكيم على الرأس والعين . ولكن لا يوجد اليوم . لا والله ولا واحدة .

ــ ولا عند اصحابك ؟

ــ لا والله السوق واقفة . لم يدخل ميدي سنبوك واحد منـذ شهرين .

ــ غرض الاستاذ عزيز لدينا . فتش ولو على دنقليـة . والثمن يرضيك .

ــ سنبذل الجهد . غرضكم ياحكيم وغرض الاستاذ على الرأس والعين .

راح ولم يرجع . وجاء آخر فكانت اجوبته تومىء الى ريب في نفسه بحسن نية الوكيل . فانكر بتاتاً .

ــ لا جواري في ميدي ، ولا احد يتاجر بالرقيق اليوم . لا والنبي ولا احد يشتري .

ــ وها من يشتري ويدفع ما تشاء . هات لنا ولو سودانية .

ــ توكل على الله غرض الحكيم نشتريه بعيوننا .

ــ وراح كذلك ولم يرجع . ثم جاء رجل طويل القامة ، طويل الشارب ، اجش الصوت ، جاحظ العين . فسلم سلام الاحباب وتربع على الديوان .

ــ سترى قريباً ما يسرك يا حكيم . والله ما نبغي الا خدمتكم

وخدمة مولانا السيد . لا يوجد جارية واحدة اليوم في ميدي . نظفنا البلد . والتجار كلهم يلعنوننا . لا يهم والله اذا كنتم راضين . اول سنبوك يدخل ميدي نحن ورجالنا نحجزه باسم مولاناونعلمكم بذلك .

وقد علمت بعدئذ ان الرجل من اكبر تجار الرقيق في تهامـة . له قصر كبير بين ميدي واللحيّة يستخدمه لتهريب الجواري والسلاح . والرجل عالم بقصد الحكيم ويظن انه يخادعه . على انه ينجح احياناً في ما يحتال به . فاذا حجز سنبوكاً مرة في السنة وسلم من فيـه الى الحكومة يشتريهن بعدئذ بوساطة احد رجاله ويأخذهن الى القصر .

سأله فضل الدين عن السنبوك المنتظر وصوله فقال : بعد شهر في الاقل . صاحبه سافر البارح الى جيبوتي عيننا عليـه ، كن مطمئن البال .

وقد يكون « صاحبه » احد رجاله . عرفنا بعدئذ انه كان صادقا في بعض ما قال . ولكن الرجل لم يسافر الى جيبوتي . ان في هذا الخبر بداءة حادثة يجيء ذكرها في حينه .

نزلنا الساعة الثانية بعد منتصف الليل الى الساحة لنركب السيارة فلقينا هناك رفيقنا السابق السيد الحضرمي ينتظرنا .

وضع الخادم أبكر امتعة سيده في السيارة عند اوجلنا وأحكم بيننا حقيبة جاءت شبه مسند استندنا اليه . ثم اشار فضل الدين الى السيد ان يجلس جنب السائق فأبى وقال : ارفعوا هذه الحقيبة فاجلس معكم .

فضل الدين : يد الاستاذ تؤلمه وهو يحتاج الى شيء يسندها اليه . تفضل اجلس قدامنا .

السيد مثلي لا يجلس جنب السائق .

فضل الدين يتلو الفاتحة ، والسيد يحوقل ، ثم : اجلس او نمشي . فهز السيد رأسه ، فأمر فضل الدين السائق بالسير ،فرفع السيد امتعته الى السيارة وصعد الى جنب السائق وهو يتلو الفاتحة . فقلت انا مع الاثنين : اهدنا السراط المستقيم .

والظاهر انه لم يكن فينا احد ممن «انعم الله عليهم».او ان السيد هو سيدُ برج النحوس فجذبنا كلنا اليه في تلك الساعة وحجب عنا سواه . بل اعمانا فبتنا لا نعرف في السماء نجماً نهتدي بـه . ضللنا الطريق ، وبقينا ساعة ندور في سهل كله درب ، ولا اثر فيه يرى لدواليب هذه السيارة المباركة التي لم تزل طفلة في البلاد . بعدنا في الدوران ثم عدنا فدنونا من ميدي ، فمن الله علينا برجل هدانا السراط المستقيم . ثم ضللنا ثانية وثالثة قبل ان نصل الى حبْل ، وهي القرية التي فيها قصر التاجر بالرقيق ، وعدنا اتفاقاً او الهاماً الى اثر الدواليب المتقطع الذي كان يبدو ويخفى في نور القمر الضئيل .

وصلنا الى اللحيّة عند شروق الشمس ، فالفيناها كالحديدة حافلة بآثار القنابل الايطالية والبريطانية ، لانها ضربت مرات من البحر في الحرب الايطالية التركية وفي الحرب العظمى الاولى. الا انها لا تزال على شيء من العمران في ابنيتها الكبيرة ، وفي اسواقها التي لا تشبه اسواق ميدي بالروائح والاقذار ، ولا بالناس وحركة الاشغال . هي قريبة من البحر ولا تزال الكياسة التركية بادية في بعض ارجائها ولا سيما في دائرة الحكومة ، حيث استقبلنا بعض الافاضل من عسير ومن الحجاز كانوا سابقاً في خدمة الدولة ،منهم رجل له ابن في الرويس كان حاضراً ليلة الوليمة والرقص التي احياها جلالة الملك حسين اكراماً لي فكتب الى ابيه يصفها . ومما قال : وكنا ساعة الفجر لا نزال نرقص

حول النار . هذا اجمل ما سمعت في وصف تلك الليلة التي وصلت اخبارها الى اليمن .

واما سكان اللحية ، وفيهم السوداني والصومالي والمولّد ، فلا يتجاوز عددهم اليوم الخمسة الاف وهو خمس سكانها قبل الحرب . وفيها ثكنة مهجورة وقلعة متهدمة ، واخربة كما قلت كثيرة . فقد كانت في آخر الحرب العظمى هدف الرصاص والنار من البحر ومن البر ، لان عساكر الادريسي بقيادة ضابط بريطاني كانوا مخندقين خارج المدينة ، وكانت ابو حلق على مسيرة ساعة منها جنوباً ، في يدهم . فتجيئهم الذخيرة والمؤونة والماء كذلك من المراكب الحربية . وما عتم ان تغلب الاسطول البريطاني فخرج الترك من المدينة ودخلت عساكر الادريسي اليها . وبعد قليل وصل الى تلك البلاد خبر الهدنة فأرخه الانكليز هكذا : ١١ — ١١ — ١١ ، اي ان الخبر وصل الى اللحية في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من سنة ١٩١٨ . كان السيد مصطفى يومئذ نائباً عن ابن عمه الامام والدكتور فضل الدين طبيباً في الجيش الادريسي . فنزل بعض الضباط البريطانيين الى البر يعيدون معهما للخبر السعيد . احتفلوا بالنصر وبانتهاء الحرب في بلاد لم تنته والأسفاه فيها الحروب .

استأنفنا السير صباح ذلك اليوم فمررنا ونحن قريبون من الشاطىء بالتُمْنية وهي قرية صيادين ، وكذلك بالخوْبَة التي لم يكن فيها ساعتئذٍ غير الاولاد . فخرجوا جميعاً يلاقوننا ويركضون ليسابقوا السيارة . وظل بعضهم وهم يثبون كالغزلان سائرين معنا بضع دقائق ، فتقهقروا الا واحداً ظلّ في ثباته وعدوه . ثم سمعناه يقول للسائق : دَلهْ دَلهْ ، اي على مهل . كأنه اراد ان يرافقنا بل يسابقنا الى الحديدة

سمعت السموات والارض طلبة الولد ، فوقفنا فجأة ، وقفنا تماماً. غرقت دواليب السيارة في الرمل ، فخرجنا كلنا الا السيد الذي ظل جالساً ، وجاء الولد يساعدنا فدفعناها الى الامام . اخرجناها مع من فيها من الرمل وعدنا الى مجالسنا وفضل الدين يقول: والحمدلله يا سيد. فاجاب بلا خجل ولا اعتذار : والحمدلله .

دع السيد يا دكتور واستقبل السراب . هوذا السراب ، وقد تراءى لنا بعيداً فظنناه لاول وهلة احدى تلك البحيرات المالحة التي تتسرب اليها مياه البحر ، او لسانا من البر امتد اليه . وكانت اكواخ القرية تنعكس في السراب فيشبه ظلها ظل الاشجار – ظلال في المياه ، ولا مياه ولا ظلال . اما لون السراب فكان اشبه بلون السماء منه بلون البحر . لذلك كنا نرى قرية ابن عباس كأنها واحة في وسط البحيرة او بستان معلق في الفضاء ، تحته وفوقه السماء . ولما دنونا منها بدت اكواخا لا ريب فيها ، وكانت المياه اي السراب المحيط بها يتقهقر ويصغر كلما تقدمنا حتى غاب رويداً رويداً عن الابصار .

بعد ان اجتزنا ابن عباس غرقنا ثانية في الرمل ، فخرجنا ندفع ونجر ، والسيد في مكانه لا يتزحزح . فرجوناه ان يتفضل فينزل في الاقل فتخف علينا المصيبة ، ففعل متردداً ، وما كادت رجله الشريفة تطأ الارض حتى تحركت الدواليب وجرت السيارة باسم الله ، فركض السيد وراءها وهو يظن انها ستستمر جارية .

وصلنا الى الصّليف المشهورة بملحها . وقد كانت قبل الحرب عامرة بشركة بريطانية منحتها الدولة امتيازاً لاستخراج الملح من ارضها . انها القرية جميلة قائمة على طرف هلال من البر في البحر والهلال ذيل ضلعٍ اي جبل يمتد شرقاً الى الزيدّية في سفح جبال اليمن . خطر لي ونحن

نجتاز هذا الجبل الضيق الطويل ، هذا الضلع في الارض ، خاطر قد يهم البريطانيين والاماميين فيما يريدون من تحقيق الصلح . ها هنا الحدود الطبيعية في تهامة بين اليمن وعسير ، بين امام صنعاء وامام جيزان فتكون الزيدية وما دونها جنوباً للزيود ، وتكون الصليف وما دونها شمالاً للادارسة . والجبل فاصل بين الاثنين .

تغيرت التربة دون ذاك الجبل جنوباً فقلت فيها السبخة وكثرت الرمال . وقلت كذلك المياه المالحة وبدت هنا وهناك ، في النبات والاشجار ، دلائل الماء القراح . فهناك السلم والالب والعشر والنخيل . وهناك دلائل الاجتهاد في بقعة من القطن شاهدنا غيرها في الطريق بين دير البحري وعجلانه . تبارك الماء العذب ولكن الرمال ... كنا قد علقنا ثلاث مرات اخرى فيها وما كان السيد يشرف الارض برجله الا بعد ان ندعوه رسمياً .

انتصف النهار واشتد القيظ الى درجة يكاد لا يحتملها حتى ابناء البلاد ، فكنا ونحن نساعد السيارة على عدوّها الرمل نحس بالنارتخترق نعالنا فتحرق ارجلنا . وكان السيد الحضرمي يزيد بالطين بلة في سلوكٍ يغيظ حتى الاولياء .

فضل الدين ، ويده على السيارة ورجلاه مثل دواليبها في الرمل المحرق : يا سيد يا ابن النبي تعال ساعدنا والا تبقى هنا . فنزل هذه المرة السيد ولبس نعله وجاء على مهل يعيننا فوضع يده على السيارة وهو يقرأ الفاتحة كأنه يريد تسييرها بالمس والصلاة . فازدادت السيارة تمرداً ، وفضل الدين غيظاً ، فقال : سيادتك مثل السراب ، بل السراب احسن لانه يسر العين .

كنا ساعتئذٍ في اشد حالنا أُصيب السائق بدوار فوقع مغمى عليه ،

وكدت انا اقع كذلك من شدة القيظ والعياء ، وفضل الدين وحده يعالج السيارة ويستعيذ بالله من برج النحوس . فارسلنا السيد الصالح أبكر الى تربة اقرب قرية منا يستنجد رجالها ، فعاد بعد ساعة ومعه بعض الاقوياء من العرب والسود يرأسهم قزم جبار سلم علينا فاضحكنا ، وحرك السيارة فادهشنا وملأ قلوبنا ابتهاجاً .

— السلام عليكم وعلى بنت الجن . هل تبغون تكسيرها او تسييرها . اذا تبتم الى الله نكسرها وننزلكم عندنا وتركبون غداً الهجين مثل المؤمنين .

خلصونا مما كنا فيه ، بارك الله فيهم ، واخذ الصغير البخشيش فتقاسمه ورجاله وودعنا قائلاً . احمدوا الله وتوبوا اليه . ولا تقطعوا الحمد ما دمتم في بنت الجن هائمين .

ما كدنا ننتهي من الحمدلات حتى بدأنا بالحوقلة وكان السائق لا يزال متأثراً مما اصابه فغاصت السيارة المرة العاشرة وعلقت الدواليب و — قم يا سيد .

فقال السيد المحترم : لا اقوم ولا انزل حتى نصل الى الحديدة . فقلت ، وكانت شعلة الغيظ قد اضطرمت فيّ ايضاً : ستنزل هنا وتبقى هنا : ان من يراك يظنك قوياً نشيطاً ولكن لا قوة فيك لا جسدية ولا روحية ، يا ضيعة النسب .

لم يجب الرجل بكلمة . وظل ساكتاً حتى وصلنا الى الحديدة فودعنا هناك واعتذر عما بدا منه .

وبعد يومين جاء الخادم يقول : رأيت السيد الحضرمي في السوق والتجار الحضارمة يمشون وراءه بعيدين عنه ، وهو يمشي ويهز كتفيه كأنه حاكم البلد .

ثم علمت انه من كبار سادات صيوون ومقامه هناك شبيه بمقام اسقف عندنا . فمثلت لنفسي اسقفاً رفيقنا في السيارة نجلسه جنب السائق ، ونستعينه على جرها من الرمل ، ونقول له فوق ذلك . انت مثل السراب . بل السراب احسن منك لانه يسر النظر . فاسفت لما بدا ، ووددته رفيقاً مرة اخرى لاكفر عن ذنب كان فيه ، سامحه وسامحنا الله شريكاً كريماً . (١)

(١) جاءتني جريدة عربية تطبع في جاوه وفيها مقال طويل كتبه احدالحضارمة هناك يدافع فيه عن هذا السيد الحضرمي ، كبير قومه ، وفخر السادة العلماء ، ويطعن علي طعناً عجيباً ، كسف الغيظ فيه كل اقمار العلم والادب في صيوون . ولكن الكاتب لم يتصد لنفي شيء مما جاء في هذا الفصل والفصل السابق من اخبار السيد المحترم .

## تجارة الرقيق

المراقبة في البحر الاحمر – الحكومة الانكليزية في عدن – الحكومة الفرنسية في جيبوتي – سلطان تاجورا – بلاد الحبشة – مصدر التجارة – رئيسها الاكبر – حديث مع الوكيل في عدن – الشريعة تقيد الوجدان – في الحجاز يحللون النخاسة – الحكومة الحجازية تقاومها ظاهراً – حادثة الحديدة – الوكيل يحاول توقيف السنبوك وتخليص الارقاء – الحكومة تأذن بنزولهم الى المدينة – كتاب الى عامل الحديدة – الارقاء يساقون ليلاً الى ميدي – آيات قرآنية واحاديث نبوية تأمر بالاعتاق – التبعة على السادة والاشراف .

ايما رجل كانت له جارية فأدبها
واعتقها وتزوجها فله اجران .

حديث شريف

كنت انكر وجود النخاسة في العالم اليوم ، فجئت هذه البلاد ورأيتها بعيني . كنت اظن ان التجارة بالرقيق محرمة وممنوعة شرعا في هذا الزمان فخاب في البلاد العربية ظني . كنت اؤمل ، على فرض وجود الرقيق والنخاسة ، ان تكون الحكومة ناهضة للامر متعقبة المجرمين ، ساعية في محق هذه التجارة المستنكرة ، الاثيمة ، فوجدتها في الحجاز وفي عسير نائمة واأسفاه او متناومة ، او عاجزة . بل وجدت الحكومة احيانا حليفة الرعاع .

اما الحكومة البريطانية بعدن فلها بعض الفضل في المراقبة في البحر الاحمر ، وفي ما تحجز بواخرُها الحربية احيانا من السنابيك حاملة

الرقيق . ولكنها لا تكمل عملها . فهي بعد ان تحجز السنبوك تطلق سراح العبيد والمستعبدين معاً . او بالحري تعيد العبيد اذا شاؤوا الى بلادهم وتبعث الناخوذاه والنوتيين الى جيبوتي لتحاكمهم الحكومة الفرنسية .

والحكومة الفرنسية الجيبوتية رعاها الله تحمي اكبر تجار الرقيق في المنطقة اي سلطان تاجورا (١). اما هذا السلطان الدنقلي المستقل الذي لم اتشرف بزيارته فالذي يظهر من امره هو انه ابعد نظراً واكبر دهاء من الذين يحمونه . هو سلطان ، نعم . ولكنه كذلك عامل حاذق ، وتاجر ماهر ، يحب المال كثيراً ، وله في احرازه حرفتان غير « التسلطن » واحدة شريفة وهي السكافة – ليس في تاجورا من يحسن صنع النعال مثله – والاخرى .... تباركت ثمرة بطنك ايتها الحبشية . اذا كسدت النعال عند السلطان فلا تنفد الجواري ولا تكسد سوقهن .

ان لسموه في الحبشة رجالاً يجيئونه دائماً بمن يبتاعون او يخطفون او يستغوون من البنات والصبيان ، وهو يبيعهم الى تجار الحجاز وعسير . الى تاجورا اذن لا الى جيبوتي يجيء تاجر الرقيق ، فيرحب به السلطان الاسكاف ، ويفتح له الكيس ، فيملأه التاجر ذهبا وفضة ويعود بسنبوك الى بلاد العرب ملؤه الجواري و العبيد . قد قيل لي ان الحكومة الجيبوتية الفرنسية تقاسم السلطان الدنقلي ارباحه في هذه التجارة المستنكرة . ومما لا ريب فيه انها تحسن معاملته وتكرمه وتجامله . دعاه مرة الحاكم الفرنسي لينزل بضعة ايام ضيفاً عليه في جيبوتي ، فقبل السلطان الدعوة .

(١) تاجورا مقاطعة شرقي جيبوتي ذات استقلال داخلي شبيهة بالنواحي المحمية حول عدن .

جاء الى جيبوتي يزور الحاكم فاستقبل استقبالاً يليق بمقامه وانزل في قصر فخم جيء بفرشه ورياشه من باريس . فحدثت السلطان نفسه ان هؤلاء الفرنسيين تجار مثله ويربحون من بلاده ارباحا كثيرة . فلماذا لا يقتدي بهم؟ اغتنم السلطان هذه الفرصة الثمينة فدعا تجار المدينة الى القصر وباعهم كل ما فيه من فرش ورياش ، ووضع المال في كيسه وعاد الى قاعدة ملكه .

ان تاجورا اذن مصدر التجارة بالرقيق ، وان سلطانها ، وهو تحت الحماية الفرنسية ، سلطان تلك التجارة . أفتعجب بعد ذلك من فساد المدنية الغربية في الشرق ونفور الشرقيين منها ؟ حدثت وكيل المعتمد في عدن بالامر فقال ان لا حق لهم من وجهة شرعية بمعاقبة النخاسين لانهم غالبا من بلاد لا سيادة لهم اي للانكليز فيها . فقلت : ومن وجهة خلقية ، ومن وجهة دينية ، ومن وجهة محض انسانية ، اذا جردنا المدنية الغربية من الخلق والتهذيب والحب الانساني فلا يبقى فيها ما يؤهلها لسيادة الشرق يوماً . واذا المعتمد مثل بنخاس من تهامة او من الحجاز او من اليمن فامر بشنقه في ساحة عدن أيظن ان السيد الادريسي او الملك حسين يحتج عليه ؟ واذا احتج ملوك العرب كلهم اتظن ايها القارىء ان العالم المتمدن ينصرهم في هذا الامر على البريطانيين مهما كان حقهم الشرعي ؟ اينصرهم العالم والنبي نفسه يأمرهم باعتاق الرقيق؟ اني انصر كل من يسعى في محق النخاسة وان تجاوز حدوده الشرعية على من يحميها او يتغاضى عنها وان كانت حكومته مقدسة .

ان في الحجاز من يحللون ويحبذون النخاسة ومنهم من يأسف انها غير مستمرة ويلعن المراقبة البريطانية الا اني سمعت ان الملك حسين يستنكرها وينهى عنها . لا ريب ان جلالة الملك حسين يستنكر

العبوديه وهو أعلم الناس بما جاء في القرآن وفي الحديث بشأن الرقيق والاعتاق . ولكن حكومته وأسفاه هي يوما نائمة ويوماً متناومة . وقد تأكدت انها تشارك النخاسين في ما تفرضه ضريبة على كل رقيق يدخل جدة .

حدث انها حجرت ذات يوم أحد سنابيك الاثم والعار بما فيه من جوارٍ وعبيد فآوتهم واحسنت معاملتهم ثم ـ ماذا ؟ قد اطلعت على نسخة من تقرير الوكيل البريطاني في جدة وفيه ما يلي : قيل ان الحكومة باعت الارقاء على حسابها . والحقيقة انها اذا اذنت ببيعهم على حساب اصحابهم ، واكتفت بتحصيل الضريبة المفروضة اي خمسة وعشرين ريالا على كل رقيق ... يجيء النخاسون بالعبيد اما بحراً في السنابيك واما براً من ميدي . وقد اطلعت القارىء على شيء من حال النخاسة في تلك البلدة وما قاله بعض النخاسين وهم يخادعون البريطانيين والحكومه الادريسية . على ان احـــد السادة قال لي واثبت قوله بعض الموظفين ان الحكومة واقفة للنخاسين بالمرصاد . بالمرصاد ؟

اعود الى يوميتي فانقل منها ما يلي :

الحديدة في ٢ تموز ١٩٢٢ ـــ ٣ ذي القعدة ١٣٤٠

دخل على الوكيل مأمور الميناء يقول : سنبوك جوارٍ رسا في الميناء وناخوذاه ورجاله دخلوا البلد . وقد علمنا ايضا انهم سائرون الى ميدي وانهم لم يرسوا في الحديدة الا ليبتاعوا بعض الزاد .

الوكيل : قل لمدير الشرطة ان يحضر حالا .

بعد عشر دقائق حضر المدير .

الوكيل : هل علمت بسنبوك الجواري الذي في الميناء ؟

المدير : نعم .

الوكيل : وكيف تأذن بدخول الناخوذاه ورجاله الى المدينة ؟

المدير : معهم اذن يا سيدي من الحكومة .

امر الوكيل مدير الشرطة ان يحضرهم امامه . فاحضرهم بعد نصف ساعة وكان يتقدمهم رجل طويل القامة ، شديد الوطأه ، حاد النظر ، دخل المكان كأنه سيده وتقدم الى الوكيل فصافحه مصافحة الاقران وجلس على الديوان . مَن الرجل ؟ هو من كبار الموظفين في الحكومة الادريسية بميدي الذي اشار اليه تاجر الرقيق هناك ، جاء الحديدة خصوصاً ليلاقي السنبوك المذكور ويرافقه محافظاً الى مقره .

بعد استنطاق الناخوذاه علمنا انه جاء من تاجورا ، وان معه اربعة وعشرين رقيقاً منهم عشرة صبيان والبقية بنات يتراوح عمرهن بين الثامنة والثالثة عشرة ، وان صاحب « المال » — البضاعه — سبقهم الى ميدي . وما هم الا مأجورون مأمورون . اما اذن الحكومة فها هو المحافظ بنفسه .

ها هنا انتهت صلاحية الوكيل السياسية ، ولكنه طبيب وله كذلك صلاحية طبية . فسأل الناخوذاه ان يحضر الارقاء ليفحصهم قبل ان يدخلوا المدينة . فوعد ان يجيء بهم بعد الظهر .

تكاد تكون الحديدة اليوم منقطعة عن العالم ، والسبيل الوحيد الى المراسلات البرقية هو بوساطة سنبوك الى جزيرة قمران ، اي ست ساعات في الريح الموالية ، ومنها باللاسلكي الى عدن . صدر الامر باعداد السنبوك للسفر ، وولى الاصيل ودنا الغروب ولم يبر الناخوذاه بوعده . على انه جاء في المساء يعتذر ، فلم يتمكن من شدة النوء والريح

من انزال العبيد الى البر ولكنه سيحضرهم صباح الغد – « والله بالله » واشار بيده الى السماء .

وكان قد كتب الوكيل الى عامل الحديدة الكتاب التالي :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قد بلغني ان بالقرب من ميناء الحديدة اليوم سنبوكاً يحمل عدداً من الجواري والعبيد ، قيل خمسة وعشرين ، جاء بعض تجـار الرقيق بهم من الشاطىء الافريقي . وهم متوجهون الى ميدي قصد التجارة . وقد سمعت ايضاً ان الحكومة الادريسية اباحت لهـم ذلك ، الامر الذي استغربته جداً ، فجئت الفت اليه نظر سيادتكم وأعيد ما قلته مراراً ان التجارة بالرقيق ، فضلاً عن انها مذمومـة في الكتاب الكريم بل منهي عنها ضمناً ، وفضلاً عن ان الدول المتمدنة وفي مقدمتها بريطانيا العظمى تمنعها منعاً باتـاً ، فهي تشين الاسم الادريسي وتضر بالحكومة الادريسية ادبياً وسياسياً ضرراً جسيماً . واني في طلبي من سيادتكم ان تحلوا المسئلة محل الاعتبار والاهـتمام افصح عن عقيدتي وعواطفي كمسلم وعن رغبة الحكومة البريطانية التي امثلها . اما السنبوك المذكور فأملي ان تتخذ الحكومـة الطريقة السريعة الفعالة لحجزه ومعاقبة ناخوذاه وبحريته وتجار الرقيق فيه ، ثم تعتق اولئك البنات والصبيان من الاسر . فان في مثل هذا العمل تزيد الحكومة الادريسية اسمها شرفاً وعدلها عدلا ، وتبرهن على رغبتها وقوتها في تنفيذ احكامهـا المبنية على الشرع الكريم . وفقكم الله الى ما فيه خير الجزاء .

محمد فضل الدين

معتمد بريطانيا السياسي

جاء الجواب ، فلم يكن مرضيا ، على ما فيه من عـــذر ووعـد وتأكيد ، اما الجواب الفعلي الحقيقي فاليكه من يوميتي :

في ٣ تموز ـ ٤ ذي العقدة

جاء مأمور الميناء هذا الصباح وفي وجهه خبر مفجع . ثم جاء مدير الشرطة وفي وجهه ما يثبت الخبر . نعم انزلوا الجواري والعبيد ليلا خارج المدينة وجاء ... « احد موظفي الحكومة في الحديدة» فاختار من الجواري واحدة واشتراها . ثم ساقوا الباقين وهم حفاة عراة براً الى ميدي .

سألت وسذاجة الجاهل في سؤالي : وهـل اعدوا لهم الركائب للسفر ؟

فاجاب المدير : اعدوا لهم يا سيدي السياط .

امش ـ امشوا . وهم يمشون حفاة عراة من الحديدة الى ميدي ، مئتي ميل في شمس تهامة وقيظها . وانك اذا وقفت دقيقة في تلك الطريق في النهار تخترق النار نعلك وتحرق رجليك .

رحماكم ايها السادة انتم اعيان الحجاز ووجوه اليمن ، انـتم حياة التجارة بالرقيق ، انتم امل النخـــاس الاكبر ومورد رزقه ، انتم الطالبون ، انتم الراغبون في الاستعباد. فاذا كنتم حقاً مسلمين فعودوا الى كتابكم واقرأوا ، عفا الله عنكم ، ما جاء في سورة النساء وسورة المائدة من النصح بالاعتاق الجزئي المتدرج ، ثم في سورة البلد وسورة التوبة وفيهما الامر بالاعتاق التام .

قال الرسول :

ايما رجل كانت له جارية فادبها فاحسن تأديبها واعتقها وتزوجهافله اجران ـ حديث شريف .

ولا يقل احدكم عبدي امتي وليقل فتاتي وفتاي ـ حديث شريف .

فهل من يأمر بالاعتاق التام يقر دوام العبودية ؟ وهل من يدعو الى المساواة يحلل الاستعباد والنخاسة ؟ انه لمن العار ايها السادة ان تنادوا بالحرية والاستقلال ، وتدّعو البر والاحسان ، وتفاخروا بالعلم وحب الانسان ، ثم لطمع بالخدمة مجاناً او لغرض في النفس تستعبدون في هذا الزمان من هم مثلكم من طينة واحدة ، ولا عذر لكم في ذلك ، ولا ما يحلله او يجيزه لا خلقاً ولا شرعاً ولا ديناً . واذا اتخذتم الآية ـ وما ملكت أيديكم ـ حجة وسلاحاً فانكم تحتجون وتتسلحون بالحرف على المعنى ، وبالعرض على الجوهر ، وبالحال ، وقد زال ، على الحقيقة . تتسلحون بظاهر الامور وكل ما فيها من جوهر وقصد شريف هو ضدكم ، يشهد على جهل فيكم ، او على علم افسده حب الذات .

اجل ان اكثر الذين يقتنون العبيد اليوم لمن الاشراف والسادة والاعيان ، فلا اظنهم يجهلون ان النبي اراد محق العبودية تماماً بالطرق الممكنة في زمانه . فنهى عن ظلم العبيد ، وامر بتعليمهم ، وبالاحسان اليهم . بل امر باعتاقهم .

هلا ذكرتم ، وانتم تفاخرون بانكم من السليلة النبوية المباركة ، ما جاء في الكتاب . هلا انصتم الى الحديث الشريف ، هلا اقتديتم ولو في هذه بالنبي . اليكم صحيح البخاري ، اقرأوا فيه الفصل في الاعتاق وفضله .

دخلت جارية على عائشة فقالت اشتريني واعتقيني . فقالت عائشة : نعم . فقالت الجارية : ولكن لا يبيعوني حتى يشترطوا ولائي .

فرفضت عائشة . ولما علم النبي بذلك غضب وجاء الى عائشة يقول : اشتريها واعتقيها ودعيهم يشترطون ما شاؤوا .

فهل من يقول هذا القول ويعمل هذا العمل يحلل العبودية والنخاسة؟ ان من يستعبد الناس لا يستحق الحرية . ان من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان لا يستحق لقب انسان . وان من يشتري الرقيق يفادي بشرفه ويفقد كرامة نفسه . اجل ، وان امة لا تستنكر النخاسة ولا تنهض عليها فتمحقها لاذل في عين الله ممن لا يعرفون الله ، واحط في نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة ، ويأكلون لحم الانسان .

## خطوات الى الوحدة

كتاب الى الملك حسين – والامر شورى بينهم –اصلاح ذات البين – – حسن نية الادريسي – تميز الحدود بين الحجاز وعسير واليمن – بريطانيا العظمى – المداخلة الاجنبية – الخطوة الاولى الى الوحدة – – كتاب الى وزير الخارجية – الاتفاق مقدمة لازمة للوحدة – توحيد النظـــام العسكري والسياسة الخارجية – التلغرافات اللاسلكية – العهود القومية – صندوق التوفير من مال الزكاة –لماذا لم يوقع الملك حسين على المعاهدة .

ودّعت الحديدة بعد حادثة الرقيق التي ذكرت . بل ودعت تهامة آسفاً لما كان من ختام رحلتي فيها . على انه لو حدثت قبل سفري الى جيزان ، وكانت فاتحة الاشجان ، لما اظنني كنت فزت بما ابغيه من عقد معاهدة بين السيد والملك . وكيف افوز ومثل هذه الحوادث ، بل هذه المآثم التي تقترف تحت عـين الحكومة ، تثير السخط والغيظ ، وتضعف فوق ذلك العزم واليقين في من يسعون في سبيل الامة وعمرانها .

بيد ان لنا في من يشعرون شعورنا في البلاد العربية ويرون رأينا املًا بمحق تلك التجارة المعيبة واستئصال شأفتها . اقرب السبل الى ذلك انما هو العزم في الحكومة ، والوجدان في السادة والاعيان . ثم اتفاق بين الملوك والامراء الحاكمين على المؤازرة في مكافحتها . ولكنت سعيت في اضافة مادة في هذا الموضوع الى المعاهدة لو كان لي سابق علم به . فعسى ان ما فاتني لا يفوت غيري ممن سيقتفون الاثر ويسعون في انجاح العمل .

قبل سفري من الحديدة ارسلت المعاهـــدة الى جلالة الملك حسين مشفوعة بالكتاب التالي :

صاحب الجلالة العظمى ايده الله .

حيّا الله مولاي الملك بالخير والسعادة . اما بعد ، قـــد ارسلت كتاباً مع الصديق قسطنطين في الشهر المـاضي فعسى ان يكون حاز موضوعه استحسان جلالتكم . والآن ، وقد عـــدت من جيزان ، اسارع الى الكتابة بخصوص المعاهدة التي تباحثنا فيهـــا وتم الاتفاق عليها .

ان في سيادة السيد الادريسي قلبا كبيراً ، وله نظر في الامـور غالباً ثاقب ، وعنده لجلالتكم من الاخلاص مـا لا غبار عليه . من حديثه الذي علق في ذهني : المسئلة بيننا وبين الشريف قريبـــة سهلة ...... وقد اطلعني سيادته على نسختين من معاهدة او تمهيـــد لمعاهدة كان النظر فيهما سابقاً مع السيد السقاف . فاضفنا بعض ما جاء فيهما الى المعاهدة التي كتبتها وعرضتها على سيادته . ثم اضاف سيادته اليها ، بعد تكرار البحث والمداولة ، المادة الخامسة ومـــا جاء في المادة الرابعة ابتداءً بـِ « وكل منا يبحث في تلك الحادثـة ويسعى فيهـا بما امكن من الاصلاح » الى حـد « مجرد الاعتداء والبغي » وما جاء في المـادة الثالثة بخصوص الحـدود ابتداءً بـِ « ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين » الى آخرهـا . وقد استصوبت رأي سيادته بخصوص اصلاح ذات البين قبل العداء ، وبالنص في مسئلة الحدود على هذا الشكل اي التعهد من جلالتكم بعدم الاعتراض في لواء عسير الى ان يـتم بينكم « تمييز حدود

معتدلة فاصلة بين الاطراف الثلاثة » وعسى ان يكون الاربعة كذلك . فاني اعتقد ان لحضرة الامام يحيى رغبة بالتسوية ايضاً اللهم اذا جئناه من باب يأمن اليه . وان مفتاح هذا الباب بيد جلالتكم الآن . اما ما اضيف الى المادة الثالثة بخصوص الحدود فما هو الا الاساس للعمل .

بقيت مسألة اخرى . كان قد اضاف سيادته بنداً بخصوص بريطانيا العظمى وحاجة امراء العرب الى موالاتها وصداقتها . فبحثت وسيادته في الموضوع وصرحت برأيي الذي يختلف مبدئياً عن رأيه ، وقد تضمن في المادة الاولى من المعاهدة في قولنا « وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية تخل باستقلال البلاد العربية » وقد اقتنع سيادته بقولي ان ينبغي ان يكون الولاء والاعتماد من الامور المعروفة والمتفاهم فيها بيننا ، لا من الامور المسجلة في المعاهدات الرسمية . فتنازل عن تلك المادة . اني مقدم المعاهدة لجلالتكم يصحبها كتاب من سيادة الامام وآخر من السيد السنوسي . فعسى ان تنال استحسانكم فتوقعوها قريباً وتعيدوها مع الوفد الى جيزان . لست ارى غير هذه الطريقة الى تحقيق آمالنا في الوحدة العربية . لان الحقيقة الثابتة التي لا يماري فيها من كان عارفاً باحوال الجزيرة هي ان امراءنا اليوم ، وان كانوا يميلون الى الاتفاق ، لا يزالون متنافرين متشاقّين . وقل كذلك متحاربين . فينبغي اذن ان تكون الخطوة الاولى خطوة سلم وولاء بين الاقران والاكفاء ، يتبعها خطوات فيها ما ننشده من وحدة سياسية قومية عربية . واني لأسعى طاقتي في هذا السبيل . ولكن لا نجاح لعمل لا يشارك فيه ذو الامر

ذوي الآراء . فالامر الان لجلالتكم . ولا شك انكم ستسعون ، وسيكلل سعيكم بالنجاح ، في اصلاح ذات البين بين السيد الادريسي والامام يحيي ، كما انه سيسعى هو في الاصلاح بينكم وبين ابن سعود . وفقنا الله الى عقد محالفة رباعية في الجزيرة قريباً. ايدكم الله في المساعي الوطنية الشريفة .

المخلص لجلالتكم

الحديدة في ٢٤ شوال سنة ١٣٤٠

وكتبتُ الى صاحب الاقبال وزير الخارجية الشيخ فؤاد الخطيب ما يلي :

عزيزي الشيخ فؤاد .

السلام عليك، عسى ان تكون بخير، وان يكون وصلك كتابي السابق الذي ارسلته مع العزيز قسطنطين . وها انا اذا اكتب اليك الآن بخصوص معاهدة اخرى تباحثنا والسيد الادريسي فيها وتم الاتفاق عليها . وقد ارسلتها الى جلالة الملك حسين مصحوبة بكلمة صريحة يشفع بها علمي واخلاصي . لا بد من الصراحة في الامر. ان الاتفاق بين امراء العرب مقدمة لازمة للوحدة السياسية. والاتفاق لايكون الا اذا تنازل كل امير عن بعض خصوصياته . انتم في الحجاز تبغون الوحدة العربية ونحن نبغيها والامراء الذين حدثتهم يبغونها. ولكنهم حراصٌ على استقلالهم ، وهم يخشون نفوذاً يظنونه سرى اليكم وتمكن منكم . قد ازلت هذا الظن من صدورهم ودافعت في مواقف عديدة عن جلالة الملك . اظن ان قسطنطين اخبركم بذلك، وبما اصلحته من سوء الظن في القنصلية الاميركية بعدن .

بقي ان اقول هذه الكلمة . لا تطالبوا الان بتوحيد العلم وتوحيد النظام العسكري ، وتوحيد السياسة الخارجية . لا . ولا بالاعتراف بان جلالة مولانا الحسين هو ملك العرب ، لان ذلك مبتسر . وقد يفسد ما هو ألزم في البداءة . ان الوحدات هذه درجات في سلم الرقي القومي السياسي ، ولا بد ان تصلوا اليها وتصعدوها . الحكيم يا شيخ فؤاد لا يكره صاحبه . عليك اذن وعلى الامير زيد ان تنعما النظر في المسئلة وتبذلا الجهد في اقناع جلالة الملك حسين اذا كان لم يقتنع بما كتبته اليه .

قد يكون عقد هاتين المعاهدتين امراً بسيطاً ، ولكنه مهم اذا اعتبرناه مقدمة لخطير الاعمال . ومن الزم الاشياء التي ينبغي ان تصحب هذه المعاهدات التلغرافات اللاسلكية . فقد تباحثت والسيد الادريسي خصوصاً بذلك ، وهم مستعدون ان يقوموا بنفقات آلة تُركب في جيزان او في صبيا . اني افضل صبيا . وستبحثون ملياً في الامر عندما تؤمون جيزان ، والمعاهدة بيدكم وقد وقعها جلالة الملك حسين . اما انكلترا فهي على ما علمت راضية بمثل هذه المعاهدات ، راغبة فيها . واما ما قد يتبعها من عهود قومية فذلك من شأن امراء العرب لا من شأنها . فمتى تمت وسائل المواصلة بوجود ممثلين للامامين في مكة ووجود التلغراف اللاسلكي بينكم كلكم تتوفقون ان شاء الله الى تقرير امور اخرى مهمة في التوحيد السياسي العربي .

وعندي ان من اهم المواد في هذه المعاهدات المادة التي تختص بادّخار قيمات معلومة من المال كل سنة لتصرف في المستقبل في الانشاءات العمومية المشتركة اسبابها ومنافعها . في هذه المادة اذا

عمل بها بداءة الاستقلال الاقتصادي الذي بدونه لا يتم استقلال سياسي في هذا الزمان . واني رسول هذه الفكرة ابثها في ديوان كل امير وكل سلطان عربي . صندوق توفير من مال الزكاة ، هوذا استقلال العرب ومفتاحه اذ كانوا يفقهون . صندوق مشترك يصرف منه بعد عشر سنين مثلاً في مد سكة حديد بين الحجاز وعسير واليمن . واذا احتاج حكام البلاد الى اخصائيين من الاجانب يستأجرونهم ويدفعون اجورهم من اموال عربية ، ويشترون ما يحتاجون من مواد وأدوات باموال عربية . فلو كانت المعاهدة بين الملك والامام وبين السيد والملك محصورة في هذه المادة ومادة الدفاع والمناصرة فقط لكفى بها الآن خيراً ونفعاً للجميع ، وقعوها اذن . وفقكم الله واطال بقاءكم . صديقكم المخلص

ها هنا تنتهي مهمتي السياسية في اليمن وعسير .

رغبت في خدمة الامام بتقريب قضيته من فهم البريطانيين ومصلحتهم ، وبتقريب البريطانيين من عقلية الامام ، وبتمهيد السبيل الى الصلح بينه وبين الادريسي ، فاقترحت ان يعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه فيه الاراء ويتعارفون ويتفقون ، فابى حضرته لاسباب ادركها ولا سبيل الى تداركها . ان الامام طامع بالاستيلاء على اليمن كله ، وهو طامع كذلك ، على ما اظن ، باللقب الذي لا يعترف به للملك حسين .

ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز بكل من اليمن وعسير في البداءة ولو بخيط من حرير ، لاعتقادي ان جلالته يمثل فكرة عربية قومية شريفة . فلم يوقع واحدة منهما ولا اظنه

استحسنهما لاسباب ادركها ولا سبيل الى تداركها . لم يعترف الامام يحيى ولا السيد الادريسي بان الملك حسين هو ملك العرب (١) ولكنهما مدا اليه يد الولاء والمؤازرة فرفضها .

---

(١) كأن مبدأ هذا الهاشمي في الحياة هو مبدأ ذاك البطل في رواية ابسن : كل شيء او لا شيء . وقد كانت نهايته بعد ثلاث سنين مثل نهاية البطل في الرواية : لا شيء — الا الغم له ولآله ولكل مريديه . اني متيقن — واظن ان كل من له شيء من العلم في الحوادث العربية بعد الحرب يشاركني هذا اليقين — انه لو وقع الحسين هاتين المعاهدتين لما نكب تلك النكبة في خريف سنة ١٩٢٤ . راجع تاريخ نجد وملحقاته .